صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية ادبية شهرية

دمشق ـ ص.ب (٢٥٧٠) هاتف ١٦٢٩١

العدد الثالث

آب

١٩٦٢

السنة الخامسة

مفهوم الدولة

بقلم الدكتور منير مشابك

تملك جميع الشعوب المتحضرة بلا استثناء دولة تعبر عن سيادتها وعن رأيها وتدافع عنها وتمثلها في الداخل والخارج وتعتبر الدولة الاطار الرئيسي الذي تمارس السلطة في داخله . فما هي الدولة ؟

تعريف الدولة :

للدولة تعاريف عديدة ومختلفة يتناسب كل منها مع وجهة نظر المؤلف الذي قال به فهناك تعريفان مشخصه يوحد بعضها بين الدولة والارض (والوطن او الرقعة الارضية التي تحتلها) ، ويوحد قسم منها بين الدولة والامة ، ويوحد قسم ثالث منها بين الدولة وواقعة التميز بين الحاكمين والمحكومين ويدمج قسم رابع بين جميع العوامل السابقة فمثلا عرفها دوغوي عام ١٩٠١ في بدء حياته التأليفية بقوله : « الدولة مجموعة بشرية متركزة على بقعة ارض معينة ، ويفرض الاقوياء ارادتهم على الضعفاء » . وهناك تعريفات مجردة تتمسك بعنصر روحي واحد لتعريف الدولة . فيقول هيكل مثلا : « الدولة هي الجوهر الاخلاقي الواعي لذاته » ، ويرى فيها آخرون : « موضوع ارادة عليا » ويرى فيها آخرون ايضا : « الشخصية الحقوقية صاحبة الحق في السيادة » ويراها قسم آخر : « منظومة قواعد شرعية في أقوى سلطانها » .

وهذه تعاريف أخرى نثبتها بنصها الحرفي :

١ ـ يعرفها دوغوي بقوله :

« تدل لفظة الدولة ، بمعناها الاعم ، على كل مجتمع بشري يوجد فيه تميز سياسي اي تميز بين حاكمين ومحكومين » . وينطبق هذا التعريف على اي مجتمع منظم ومتفرد وهذا ما يقصد به عندما تتكلم عن الدولة في اوربا وآسيا . ولكن هذا المفهوم يشبه تماما عندئذ مفهوم الامة .

٢ ـ ويعرفها اسمين بقوله :

« الدولة عبارة عن الشخص الحقوقي للامة « اي انها الشكل السياسي الذي تنزع كل أمة متحضرة لان تلبسه موضوعيا وذاتيا في واقع المؤسسات وفي ضمير (او شعور) المواطنين . انها بالنسبة للمواطنين شخص معنوي .

فمهوم الدولة يعبر عن وعي الشعوب لذاتها ولشروط وجودها وكمالها وللالزام الذي يدفعها الى الحاق المصالح الخاصة بالمصلحة العامة وتأمين هذا الالحاق بواسطة منظمة او مؤسسة ملائمة ...

٣ ـ ويقول كونتاردارن :

« الدولة عبارة عن مجتمع مدني يملك أرضا معينة ، وتتمتع باستقلاله (كما يملك جميع الاجهزة الضرورية (لتأمين) سيره المنتظم » ..

ويعتبر هذا التعريف الدولة كمرادف للامة .

مقال مأخوذ عن علم الاجتماعي السياسي . للمؤلف وهو لا يزال مخطوطا .

٤ ـ ويقول هوبر متأثرا بدور كهايم :

« يطلق مفهوم الدولة ، في حقوق الدول المتحضرة ، على تلك المنظومة من الاشكال المؤسسية التي يعبر فيها عن الارادة القومية . فالدولة هي اذن تصور جماعي محدد ومخصص وهي روح المؤسسات السياسية . وبما ان ارادة الحياة الجماعية تطرح نفسها لذاتها (لهذا) يقال : الدولة مستقلة . وبما أنها (ارادة الحياة الجماعية) ترتفع فوق الافراد ، وبما ان تعبيراتها تتخذ الطابع الالزامي ، (لهذا) يقال : الدولة سيادة (او ذات سيادة) ... » وهكذا يرى هوبر ان الجوهر الروحي للدولة ليس سوى مجموع العقائد المشتركة التي يتألف منها الضمير (او الوعي) القومي . ولا تتميز الدولة لديه ، عن القوة الاجتماعية ، اي القوة الملازمة للتصورات الجماعية .

٥ ـ ويقول جورج بوردو :

« الدولة هي السلطة وقد اصبحت مؤسسية وهي المؤسسة التي تتجسد فيها هذه السلطة . » يلح هذا المؤلف على فكرة السلطة على غرار اتباع دور كهايم الذين يعتبرون الدولة تجسيدا لهذه السلطة . اذ يرى هذا المؤلف ان السلطة عبارة عن العنصر الاساسي الذي نستطيع الارتكاز اليه في تعريفنا للدولة ويعتبر هذا العنصر السمة الاساسية المميزة للدولة والتي ترتبط بها السمات الباقية (اذ) الارض عبارة عن مجال عمل السلطة ، والامة تخضع للسلطة وتساهم معها في آن واحد . وقوة الدولة تعتبر تجليا او ظهورا للسلطة . فالدولة عبارة عن شكل للسلطة السياسية ...

ويتأثر في هذا ببعض المؤلفين الالمان الذين يقولون: « ليست السلطة السياسية عنصرا ، اي جزءا ، مكونا لبنية الدولة ، ولكنه الدولة بذاتها في وظيفة ارادتها المسيطرة او الغالبة ... »

أما بعض المؤلفين الآخرين فقد الحوا على القوة والقسر والعنف التي تظهر في اساليب الدولة احيانا .

٦ ـ فمثلا يقول لينين :

« الدولة آلة معدة لتقسيم سيطرة طبقة على اخرى .. »

٧ ـ ويقول ستالين :

« الدولة في يد الطبقة المسيطرة ، عبارة عن آلة معدة لسحق مقاومة خصومها الطبقيين .. »

وهكذا يرى الماركسيون في الدولة منطق سياسية تقيمها الطبقة المسيطرة اقتصاديا بقصد المحافظة على النظام الاقتصادي القائم ، وسحق مقاومة الطبقات الاخرى . ولا يلح عن هذا الطابق القمعي الماركسيون فقط ، بل سنرى حالا مؤلفين آخرين عديدين يظهرون بكل الحاح هذا الطابع . وتعريف هؤلاء المؤلفين عائد الى نظرتهم او نظرياتهم في أصل الدولة ونشأتها . اذ يرون انها نشأت للاذلال والخضوع وسحق الاعداء والخصوم في الداخل والخارج وقمع مقاومتهم . وهاك مثالا مأخوذا عن مؤلف امريكي يلح على هذا الطابع بشكل واضح جدا .

٨ ـ الدولة هي الوكالة او المظهر او المؤسسة الاجتماعية التي سمح لها باستخدام القوة وجهزت لاستخدام القوة وممارسة الضبط القسري ويمكن ان تمارس هذه القوة في سبيل ضبط اعضاء المجتمع ، أو ضد المجتمعات الاخرى . »

أما بعض المؤلفين الآخرين فيلحون على طابع آخر هو طابع السيادة كما رأينا سابقا وعلى طابع آخر هو حفظ المصلحة وتأمين النظام داخل المجتمع ، في سبيل المجتمع بأسره ، أو في سبيل فئة منه فقط .

٩ ـ فمثلا يقول جيلن وجيلن :

« الدولة عبارة عن منظمة السلطان (السلطة) السياسية لافراد يقيمون على ارض محددة . وأهدافها: (١) صيانة مصالح الرهط (أو الجماعة) بكامله ، أو مصالح اجزاء خاصة من الرهط ضد الدول الاخرى وضد الرهوط الملحقة و (٢) حفظ النظام لصالح الرهط الذي يحكم ، او لصالح المجتمع بكامله ... » ويرى هذا المؤلفان ان المحافظة على المجتمع (او الرهط) كان الدافع الاساسي لظهور الدولة وتنظيمها . ويحاول مؤلفون آخرون ان يدمجوا في تعاريفهم بين عناصر مادية كالسكان والارض ، وعنصر روحي كقوة السيطرة ، أو السلطة الدولية .

١٠ ـ فمثلا يعرفها كازي رومالبرغ بقوله :

« كل من الدول المشخصة هي جماعة من الناس متمركزة على أرض خاصة وتملك تنظيما ينتج عنه

بالنسبة للجماعة معتبرة بعلاقاتها مع اعضائها قوة عمل عليا ، وأمر ، وقسر . »

١١ ـ ويقول بونار :

« تشكل الدولة وحدة شرعية (حقوقية) دائمة تستلزم جسدا اجتماعيا ، الذي يمارس ، باستخدامه ، عامة الطريقة وحيدة الطرف وبممارسة القسر المادي الذي يحتكره بعض السلطات الشرعية على امة متركزة على بقعة أرض .. » ما قدمناه من تعاريف يلقي ضوءا ساطعا على مفهوم الدولة وواقعها . ونرى أكثر المؤلفين يلحون على فكرتي السلطة والقوة ، كما يذكر الاخرون الى جانبها فكرتي الامة (او الشعب او السكان او الرهط) والبقعة الارضية (الوطن) . حتى أن النظرية السائدة في الحقوق العامة الالمانية ترى أن الدولة تتألف من ثلاثة عناصر هي : الارض ، والامة ، والسلطة .

رأينا :

أما نحن فنرى أن كل تعريف جامع لا يخصص يعتبر تعريفا ناقصا ومبسطا ومعبرا عن وجهة نظر واحدة فقط . لهذا نقول ان كل تعريف يجب ان يتلاءم مع التطور التاريخي الذي خصصت له الدولة كمؤسسة وكمفهوم وكواقع . فالدولة الفرعونية ، او الاشورية ، او السومرية تختلف اختلافا كبيرا عن الدولة السويسرية فمثلا من حيث التنظيم والاسس . فاذا قامت الاولى على القمع والعنف والعبودية ، فلا تقوم الثانية على مثل هذه الاسس . وفي نفس العصر الذي نحن فيه لا يمكن ان نعتبر دولتين قائمتين حاليا كدولة العربية السعودية ، أو الكويت ، أو اليمن من جهة ، وكدولة سويسرا او الدانمارك من جهة أخرى مؤسستين او قائمتين على نفس الاسس من حيث القمع والعنف والقسر والتنظيم .. لذا يجب ان نراعي في تعريفنا هذه الناحية الهامة . فالدولة في أول ظهورها كانت عبودية فعلا وكانت آلة قمع وعنف تستخدمها الطبقة الارستقراطية لسحق مقاومة العبيد ، وكذلك كانت الدولة الاقطاعية آلة عنف تستخدمها الطبقة الاقطاعية لسحق مقاومة الاقنان وانتفاضاتهم . وكثير من الدول الديكتاتورية الحديثة كانت بالفعل آلة قمع تستخدمها طبقة ضد طبقة أو أكثر . فمثلا استخدمت الطبقة البورجوازية النظام النازي في المانيا والنظام الفاشيستي في ايطاليا لسحق البروليتاريا العمال (خاصة) والفلاحين .. وقد استخدمت البروليتاريا وعلى رأسها الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي الدولة الاشتراكية للقضاء على الطبقة البورجوازية والاقطاعية .. ولكن لا نستطيع ان نقول ان الحكم في سويسرا مثلا يستخدم الدولة كأداة لقمع العمال والفلاحين وانما يوجد باعتراف الماركسيين بعض الدول التي يكون الحكم فيها عبارة عن تسوية بين الطبقتين (او الثلاث) المتنازعتين على السلطة . ولهذا تخف سلطة القمع والعنف والقسر ، وهذا ظاهر في سويسرا والسويد والدانمارك وانكلترا وفرنسا (الى حد ما) ...

ولهذا نجد هنا قسما كبيرا من الحرية والتسامح بين مختلف الطبقات ولهذا يمكن ان نعرف الدولة كما يلي : الدولة مؤسسة اجتماعية وسياسية ذات سلطة مشروعة (أو تسوغ مشروعيتها بطرق متنوعة) لا توجد الا في الشعوب المتحضرة المستقرة على بقعة ارض معينة ، وقد اقامتها في الاصل طبقة الاغنياء لتحافظ على ثروتها وملكيتها ولتسحق بها مقاومة العبيد والفقراء لها، واخذت هذه السلطة مع الزمن وخاصة في القرن الحالي تميل نحو الشرعية الصحيحة والقيام على اساس رضى الشعب وقبوله ، ودعمه . وبهذا خفت الهوة العميقة التي كانت تفصل بين الحاكمين والمحكومين والتي كانت تعمق منها السلطة الاعتباطية والتحكمية وغير المشروعة التي كان يفرضها الحاكمون على المحكومين . ومهما يكن من امر فتبقى الدولة الديمقراطية الحديثة محافظة على بعض بذور كامنة من العنف والديكتاتورية . اذ هل يسمح في انكلترا والولايات المتحدة الامريكية وفرنسا مثلا للشيوعية او الاشتراكية الماركسية ومن ورائها الطبقة الكادحة من عمال وفلاحين ان تسود ؟ ألم يستعمل العنف فيها وفي سواها من الدول الديمقراطية مع الحركات العمالية ، والاحزاب الاشتراكية العمالية ؟ فالعنف يستخدم في هذه الدول عندما تحاول طبقة معينة أو فئات معينة أن تزلزل أو تهدم اسس النظام الرأسمالي فيها .. (١)

---

(١) نعتذر عن عدم تمكننا من ذكر مصادر المقال لانها جميعا باللغات الاجنبية ...

وداعاً يا دمشق .. قصة

السيدة ألفة عمر باشا الادلبي

سعدي بك خفيف الرأس - على حد تعبير اصدقائه - اذا ما كرع كأسه الثالثة انقلبت رزانته خفة ، وتحول صمته الطويل ثرثرة ، قد لا تنتهي الا بانتهاء الجلسة . ولما كان يدرك عيبه هذا ، فهو يؤثر اذا ما أراد أن يدفن همومه في كؤوسه ، أن يشرب مع اخلص خلانه ، حتى اذا دب دبيبها الى مكمن الاسرار كان في مأمن من الافشاء .

كانت الجلسة هذه المرة على شرفة منزله المطلة من سفح قاسيون على بساتين الشام وغوطتها . وكان جليسه صديقا قديما لا يتورع من أن يبثه شكواه . أو أن يبوح له بدخيلة نفسه ، لا سيما وهو من الصنف الذي يحسن الاصغاء مهما طال الحديث .

ويجلس الصديقان يشربان ويتسامران ، فالامسية ممتعة ، والهواء دافىء معطر ، والقمر بدر ، والمائدة حافلة بأكلات شامية شهية . ولما استقرت الكأس الثانية في جوف سعدي بك ، التفت فجأة الى صديقه وسأله جادا :

- الا تعتقد معي يا فؤاد ، أن في الهرب احيانا شجاعة ؟

قال فؤاد :

- قد يكون ذلك صحيحا ، وقد قال الناس قديما :

- الهرب ثلثا الشجاعة .

قال سعدي بك :

- ولكن في اعتقادي ان الهرب يكون أحيانا شجاعة كاملة ، بل أكثر من شجاعة ، سمه اقداما ، تضحية ان شئت .

لقد هربت في حياتي مرتين .. وكنت في هربي كما اعتقد اشجع مني في أي حين آخر .

ويصمت قليلا وهو يفكر ويملأ كأسا . ولم يسأله صديقه أن يتم حديثه خشية أن يكون كمن يود أن يستطلع ما لا يعنيه . غير أن سعدي بك ما لبث أن عاد الى ما انقطع من حديثه فقال بصوت هادىء عميق :

كان ذلك منذ أكثر من عشرين سنة ، يوم كنت في الثامنة عشرة من عمري نسكن حي العمارة . وكانت دارنا تقع الى جانب دار حليم باشا أكبر وجهاء الحي آنذاك . اتصدق انني مهما سكنت من الدور ، ما زلت الى الان أحب دورنا الشامية القديمة ، وأحن اليها ، وأفضلها على غيرها . الا ترى معي أن في طراز بنائها القديم شيئا من الديموقراطية . انها تبدو على الاقل متشابهة لا يشمخ كبيرها على صغيرها ، جدرانها تسند بعضها بعضا ، ومياهها مشتركة ومكشوفة ، وسكانها دائما امناء على طهارة المياه . وسطوحها متصلة ببعضها ، وشبابيكها المتقابلة المطلة على الازقة الضيقة تكاد تتعانق في ود ، توحي اليك دائما انها تضم اناسا متحابين متآلفين، يشد بعضهم ازر بعض . ولا يبدو لنا الفارق الا اذا ولجنا الدهليز المعتم ، وتخطينا الدار الاولى التي كنا نسميها (البراني) ، الى الدار الثانية (الجواني) حيث تبدو لنا عظمة الدار في سعة فسحتها ، وزخرفة ليوانها ذي القوس العالي ، واناقة بحرتها الرخامية ذات النافورة الدفاقة ، كذلك كانت دار جارنا حليم باشا أكبر دار في الحي . وكان البراني في دار الباشا يضم كل مساء وجهاء الحارة ، وكان مكان ابي يأتي دائما الى يمين الباشا . فهو جاره ، وابن حارته ، وصديقه القديم . وكان أبي ضابطا متقاعدا ، قد خاض حروبا كثيرة ، وعنده رصيد من الحوادث لا ينضب ابدا . كان يتحدث الى حليم باشا وضيوفه بعنجهية عسكرية عن بطولات لم تقع أبدا الا في خياله الخصيب .. وكان يصغون اليه مأخوذين بحديثه وهم يحتسون القهوة التي يدور بها

عليهم أبو نعيم وكيل الباشا .

كنت كثيرا ما أحضر تلك الجلسات مع ابي . واتخير مكاني دائما مقابل الباب المؤدي الى الدار الجوانية عساي ألمح سنية ابنة الباشا ... فكثيرا ما كانت تغافل الخدم وتأتي من الدار الجوانية وتشق الباب قليلا الذي كنت أجلس قبالته لتخالسني النظر ، أو تشير الي اشارة تسكرني بها طول الليل ..

كم كنت أعشق سنية ... كنت أنتظر كل صباح العربة التي تقلها من البيت الى مدرسة الراهبات في حي باب توما . كنا نتبادل النظرات والابتسامات ، كان لصوت حوافر الخيل المطهمة التي تجر عربة سنية على بلاط الزقاق وقع الموسيقى على سمعي ، كنت اتلكأ في الطريق حتى تمر العربة فلا أصل الى مدرستي - مكتب عنبر - في أكثر الاحيان الا متأخرا فيفرض علي قصاص قاس كنت اتقبله راضيا في سبيل سنية .

ولما بلغت سنية الرابعة عشرة منعها ذووها من الذهاب الى المدرسة على جري العادة في ذلك العصر واصبحت لا تخرج من البيت الا صحبة امها او عمتها ، ملتفة بملاءة سوداء . ولم اعد اراها الا لماما . ولكن العشاق بارعون دوما بابتكار الوسائل التي تصلهم ببعضهم ، مهما اشتدت المراقبة عليهم ، كانت شبابيك دارينا ذات الاخصاص الصغيرة لا تبعد عن بعضها الا قليلا . فكنا نغامر حين يشتد بنا الشوق ، فأضع على رأسي غطاءا لأبدو كامرأة واقف خلف الشباك ونشير الى بعضنا ، او نتحدث بكلمات مبهمة لا يدرك معناها غيرنا ، وربما كانت هناك عشرات العيون ترقبنا من شبابيك الجيران المقابلة لنا . أما الساقية التي كانت تنحدر من دار الباشا لتمر بدارنا فياما حملت لي رسائل سنية . كنت اقف في الساعة التي تحددها لي اراقب الساقية ، والتقط أي شيء طاف عليها ... باذنجانة محفورة قد احكم سدها بعد أن حشرت فيها الرسالة ، أو قارورة ، أو علبة صغيرة . كل شيء له قدرة على العوم ، وعلى عدم تسرب الماء الى داخله كان قادرا لان يحمل لي رسالة منها ..

وتموت في حارتنا جارة لنا عجوز ، هي زوج احد الوجهاء . ويصبح حتما لزاما على رجال الحارة بما فيهم الباشا ان يذهبوا ثلاث ليال متواليات بين صلاة المغرب وصلاة العشاء الى دار المتوفاة ليتقبلوا التعازي من أهلها . فأهل الحارة الواحدة كما تعلم كانوا وكأنهم ابناء اسرة واحدة .

وتحمل الي الساقية رسالة من سنية تقول فيها :

سأنتظرك بعد المغرب في البراني . لا تخف لن يكون في البيت أحد غيري ، لانهم سيذهبون جميعا لتعزية جارنا .

آه لن انسى ابدا وقفتنا تلك تحت الياسمينة !..

اشعة القمر تغمرنا والظلال تتراقص من حولنا ، والنافورة تغني لنا ، والياسمينة تداعبنا فتهرهر زهراتها علينا ، ويستقر بعضها فوق شعر سنية الفاحم نجوما ناصعة البياض . وسنية ترتدي ثوبا من حرير ازرق له حفيف ناعم ، تهف منها رائحة عطر البنفسج الذي كانت تفضله على كل عطر . وألق غريب يشع من عينيها السوداوين ، ويدها الطرية الناعمة تضطرب في يدي . قلبي يخفق ، وكياني يرتعش ، ونشوة تغمرني ما عرفت أروع منها في حياتي ... طوقت سنية بذراعي ، ورحت أشد جسمها اللدن الى صدري فأسمع خفقات قلبها ..

قلت لها :

ليت لنا أجنحة ...

قالت :

والى أين تريد أن نطير بها ؟

قلت :

الى القمر ...

قالت :

ما أروع ذلك ! .. ولكن الا تشعر معي كأننا نطير الان ؟.. وكأننا قد اقتربنا من القمر ؟..

وقبل أن أرد عليها نسمع حركة صغيرة ما أدري مأتاها ، قد تكون قطة او نحوها ، جعلتنا في لمح البصر نفترق مذعورين ونحن في أوج نشوتنا فيهرع كل منا في درب معاكس !..

وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها سنية ! ..

بعد أيام قلائل اذ الساقية تحمل الي رسالة منها تقول فيها أن يجب علي الاسراع في خطبتها قبل ان يعطي ابوها كلمته لاحد الوجهاء الذي جاء البارحة يخطبها لابنه ..

وهرعت الى امي .. وبحت لها بسري ، ورجوتها أن تعرض الامر على أبي . كنت أكلمها وقلبي يخفق ، وأشعر بخوف ما عرفت له مثيلا ، وكأن له مخالب تنغرز في قلبي وئيدا وئيدا .. ويزداد خوفي عندما أرى تجهم وجهها ... وكأنها شعرت بما أقاسي من لهفة وارتباك ، فراحت تواسيني وتقول لي :

اخشى يا بني ان يرفضوا مصاهرتنا ، فنحن لسنا في مثل مقامهم وغناهم ..

ويدخل علينا أبي فجأة ، فأتوارى خجلا منه ، وتحكي له امي ما كان يدور بيننا . ويعود الي شيء من أمل باهت عندما ألمس تحمسه للقضية فهو لا يرى نفسه أقل شأنا من حليم باشا . وقد اكسبته تربيته العسكرية كبرياءا وانفة . ويصر أن يذهب فورا الى الباشا ليخطب لي ابنته تحديا لامي التي ارادت أن تتمهل قليلا لتمهد للامر وترسل من يجس النبض حسب قولها .

ويعود أبي من دار الباشا مقهورا ، محطم الكبرياء، حتى خيل الي أن قامته المنتصبة قد انحنت قليلا فقد خاب امله بالباشا الذي رده ردا غير كريم . ونوه له بلهجة يفهم منها :

انه كان الاحرى به الا يتطاول الى مقام أرفع منه، والا يتناسى هذا الفارق البين بين الاسرتين . ويحلف ابي الا يرى الباشا ، والا يكلمه ابدا بعد هذه الاهانة التي لحقته منه .

وتتحطم آمالي كلها كما يتحطم لوح زجاج شفاف ارتطم بأرض صلبة ...

ولا بد لك ان تسألني وكيف كان حالي بعد ذلك؟

لقد كنت شجاعا ... شجاعا حقا اكثر مما كنت انتظر أنا نفسي .. لم أنزو في ركن من بيتنا لأجتر مأساتي كأي مراهق بليد ، لقد كان لدي من الجلد ما يكفيني لكتم الالم الذي راح يمزقني فما يبدو علي منه شيء ..

وما أسرع ما انتشر الخبر في حارتنا فقد نقله أبو نعيم الذي سمع ما دار بين ابي والباشا الى السائس ، والسائس حكاه الى الحلاق ، والحلاق وجده خبرا مثيرا لتسلية زبائنه ..

كنت ألمح الشماتة في عيون شباب الحارة ، فكل واحد منهم كان يحلم بسنية ، ويعز عليه ان يستأثر بها غيره .

ورحت افكر في كثير من العزم والتصميم لتحطيم السلاسل التي كانت تشدني الى سنية منذ وعيت الدنيا وان كان في تحطيمها تحطيم قلبي . فقد كان يخيل الي انني غير قادر على السكن في حي بعيد عنها ..

واقرر الهرب من الشام كلها ، لاهرب من مأساتي.

وكان لي خال مغترب يعمل في سان باولو من اعمال البرازيل ، ليس له اولاد ، وكانت يكتب الي من حين لآخر يحثني على المجيء اليه لاتعاون معه على ادارة اعماله الكبيرة . وكان اهلي يشجعونني على الذهاب اليه لما ينتظرني هناك من خير وكنت ارفض دائما من اجل سنية ...

ولما بلغها خبر عزمي على السفر أخذت تكتب الي رسائل كثيرة تستحلفني فيها أن لا أسافر ، فهي لا تقوى على العيش بعيدة عني ، وتعدني بأنها ستسعى دائما لتهيئة الفرص المناسبة لالتقائنا . وكانت رسائلها تزيد في ألمي وعذابي ، وكثيرا ما كانت تبكيني وتؤرقني طوال الليل . ورغم ذلك لم اضعف ولم اتخاذل ايرضي سنية ان تكون زوجة لغيري ، وان اظل عشيقا لها طول العمر ، اتحرق على لقياها ، واتلصص خلف الشبابيك والابواب لافوز منها بنظرة !! ..

أنا لا أحب الطرق الملتوية منذ صغري ...

وكانت الشجاعة في أن أهرب ...

وهربت ... واغتربت عن الشام عشرين سنة .

وكان الحظ حليفي في كل خطوة خطوتها في البرازيل ، وتنفتح امامي ابواب الرزق والتوفيق على مصراعيها ... ولكنني كنت اشعر دائما ان في سعادتي نقصا ما يعوضه علي شيء ..

لم أفكر بالزواج ابدا ، ولم اعرف نشوة الحب على كثرة ما عاشرت من النساء ، كما عرفتها امام سنية . فأنا لم انسها ابدا . وكلما بعد بنا العهد تألقت ذكراها في نفسي وازدادت تمكنا منها . وتصبح سنية والشام شيئا واحدا في مخيلتي ، لا تأتي ذكرى احداهما الا مقرونة بالاخرى . وكلما مرت الايام ازداد حنيني ، ونفذ صبري ...

وذات ليلة استبد بي الارق ، ، واللوعة على فراق الوطن فما يصبح الصباح حتى أقرر ان اجمع ما كسبته واعود الى بلدي التي هربت منها يوما بسبب سنية ..

ولشد ما أفرحني وأدهشني ما لمست في بلادي من تقدم وتطور ما كنت احلم به ، كما آلمني اختفاء بعض الصور التي كنت الفتها ، وحننت اليها في غربتي ...

ورأيتني ، ولم يطل مقامي بعد ، اتنسم اخبار سنية ، ووجدتني بالرغم مني ما أبرح افكر بطريقة تتيح لي الالتقاء بها ... ولكن الامر كان ايسر مما توهمت . هل تصدق ان اول دعوة تلقيتها الى العشاء كانت من سنية ؟..

دهشت ولم تصدق عيناي ما أرى ... لقد تطورنا يا أخي بسرعة غريبة الى حد خرجنا به عن المألوف .

فسنية التي تركتها قبل عشرين سنة لا تخرج الى الطريق الا ملتفة بملاءة سوداء ، ولا بد أن يرافقها أحد ذويها . اذ هي تخرج الان بمفردها ، سافرة تماما ، ولا ترى حرجا في أن تدعو رجلا مثلي الى دارها لتعرفه على زوجها ، ولا رابطة تربطها بذلك الرجل سوى انه كان جارا لها منذ عشرين سنة ...

واجدني فرحا بهذه الدعوة انتظر ميعادها بصبر فارغ . ولكنني عندما وقفت أمام بيتها وجدتني مترددا ، خائفا .. أود لو أن أعود ... خشيت أن أرى سنية قد تغيرت عما كنت أعرفها عليه ، وانا حريص كل الحرص على أن أظل محتفظا لها بتلك الصورة الرائعة المنطبعة في ذاكرتي ، والتي اتخذتها مقياسا لجمال المرأة . ولكن لا مناص لي من الدخول فأنا لم اعتذر عن المجيء .

وكم عجبت عندما رأيتها وهي في الخامسة والثلاثين أحلى منها في الخامسة عشرة . لقد امتلأت قليلا فازداد جسمها بضاضة ولدانة ، ومسحة من الحزن راحت تكسو محياها فيبدو جمالها اعمق وافتن .

وتقدم الي زوجها : ـ رجل قصير بطين ، تطل البلادة من كل قسمة من قسمات وجهه .. وما أظن ان له ميزة سوى انه ابن عائلة معروفة ، وقد ورث ثروة طائلة جمعها له الاخرون ..

كان هذا هو الرجل الذي اختاره لها ابوها ، وكان عليها ان تخضع لمشيئته ، مهما كان الامر !.

وفي لمحة استطعت ان اقدر مدى الضيق الذي عاشت فيه هذه المسكينة ! ..

كان لقاؤنا الاول فاترا ، فكلانا تلعثم وارتبك امام صاحبه ، وبدأت الدعوات تتالى علي من سنية وأصبح أنا أيضا اتحين الفرص التي تتيح لي الالتقاء بها ، فكنت ارتاد الاماكن التي ترتادها هي . ولكن ما من مرة اتيح لنا أن ننفرد ببعضنا .. الى أن كانت ليلة أول البارحة ، وكنت قد تلقيت منها دعوة الى العشاء في مصيف الزبداني . كانت الدار التي تصطاف فيها سنية مختبئة في بستان كثيف الاشجار .

وأصل في الموعد الذي حددته لي ، أي قبل أن يصل زوجها بقليل ، ولا أدري فيما اذا تعمدت ذلك أم جاء مصادفة . وجلسنا منفردين على الشرفة في ضوء القمر . وكانت سنية ترتدي ثوبا من حرير أزرق له حفيف ناعم ، وعطر البنفسج عطرها القديم تفوح رائحته .. أتراها هل تعمدت ذلك أيضا لتعيد الى ذاكرتي نفس الصورة التي رأيتها فيها في آخر لقاء لنا ؟؟ ..

اقتربت مني وقالت بصوت ناعم شجي :

لقد حدثتني كثيرا عن اميركا . أما أخبارك الخاصة ، فما سمعتك مرة تتحدث عنها ..

قلت : أويهمك ذلك ؟؟

قالت : يهمني جدا ... أكثر مما تظن ..

فضحكت وقلت : عما تريدين ان احدثك ؟

قالت وعيناها تضحكان : حدثني عن النساء اللواتي احببتهن هناك ..

قلت : اتصدقين يا ترى اذا قلت لك ما أحببت امرأة الا وفيها شيء منك ؟.. احببت مرة امرأة لان لها صوت ضحكتك المرحة ، واخرى لان لها طراوة جسمك اللدن .. اما عيناك الآسرتان .. فلكم بحثت عنهما فلم أر لهما مثيلا ..

فاذا هي تتنهد من عمق ، وتشرد قليلا ثم تسألني :

أحقا ما تقول ؟؟

قلت أو تشكين بقولي ؟

ويعود الى عينيها ذلك الالق ، الذي كانت محته مسحة الحزن التي شاعت في وجهها ، وتعطيني يدها ، وآخذها بين يدي .. ما زالت طرية ناعمة كما كانت قبل عشرين سنة ..

ثم تقول بصوت شجي :

أما آن ان تنبت لنا اجنحة ؟...

قلت : اما زلت تذكرين اذن حديثنا عن الاجنحة في آخر وقفة لنا في داركم البرانية في حي العمارة .

قالت : سامحك الله ! أوتريدني ان انسى أحلى لحظات حياتي ؟؟ .. لو اني نسيت ذلك لما سألتك سؤالي :

أما آن ان تنبت لنا اجنحة ؟؟ ..

قلت : لقد آن لنا ذلك .. فهل لك أن تطيري معي؟

قالت : الى آخر الدنيا ان شئت ..

ثم تشير بيدها الى البستان الفسيح ، والفيلا الانيقة التي تضم زوجها وولديها وتقول :

سأتخلى عن كل ما ترى من اجلك انت . كانت تقولها بتصميم وتحد .

وأطوقها بذراعي ، وأشدها الى صدري ، وأشعر بأنفاسها تلفح وجهي ، ويروح قلبي يضطرب وكياني يرتعش ، وتعاودني تلك النشوة التي ما عرفتها امام امرأة غيرها ..

ولكن حركة صغيرة جعلتنا نفترق في مثل لمح البصر ونحن في أوج نشوتنا !..

كانت هذه المرة آتية عن ملاكين صغيرين جاءا يتعثران بثوبين ابيضين للنوم ليأخذا من امهما قبلة المساء ..

قامت مرتبكة وقالت :

سأغيب قليلا ، وتخرج من الشرفة والصغيران يقمزان امامها ، ويتطاولان ليقبلاها في عنقها ، ، وهي تحوطهما بذراعيها ، وتحنو عليهما ، وتداعبهما .

وأقف برهة ، ارقب هذه الصورة الرائعة وهي تبتعد عني شيئا فشيئا في البهو الانيق ، صورة ام شابة يحف بها طفلان كملاكين ، لوحة رائعة لم يبدعها فنان بعد ...

وأفكر واتساءل :

ايجوز لي أن أفسد هذا الجمال ؟

ان اشوه اللوحة الرائعة ؟

أن أبدل سعادة الملاكين الصغيرين تعاسة ؟

أن أهدم هذا البيت ؟؟

لا .. لا لن اقدم على ذلك ..

وكان للشرفة التي أقف عليها درج متصل بالحديقة ، قفزت درجاته بسرعة ، وهربت ...

ثم يحدق سعدي بك الى جليسه ويقول :

اتدري لما دعوتك الليلة ؟؟

ثم يمد يده الى جيبه ، ويخرج منها بطاقة سفر الى اميركا ، يلوح بها ويقول :

دعوتك لاسهر معك هذه اللية ، آخر ليلة لي في دمشق حتى يحين موعد الطائرة . وها هو ذا قد حان . خشيت يا أخي أن تنازعني نفسي اليها ، فلا أقوى على ردها ما دمت أنا وهي في بلد واحد ، لا بد أن تجمعنا مناسبات ومصادفات .

لقد عاد حبها الى قلبي أعنف مما كان ، فأما أن أقدم على أمر اعتقده جريمة ، وأما أن أغادر دمشق الى غير رجعة ... كما سبق لي ان غادرتها قبل عشرين سنة من اجل سنية ...

ثم يقوم متثاقلا ، وهو يحدق بعينين نهمتين في السهل الفسيح الذي ترتاح فيه دمشق ، كأنه يتملى منها أو كأنه يقول :

وداعا يا دمشق لا لقاء من بعده !...

اللغة وعمود الشعر

فنون

* بقلم الدكتور ابراهيم السامرائي

لقد شاع بين الذين يتحدثون عن الادب الحديث مصطلح جديد هو « الشعر العمودي » متخذين من مصطلح النقاد الاقدمين « عمود الشعر » مسوغا لهذا الابتداع ، وهذا الصنيع ربما قام على خطأ في مفهوم المصطلح القديم ٠ ووجه الخطأ في هذا الاختراع أنهم يريدون بهذا المصطلح الفني الجديد أن يكون الشعر الجديد - وهو شعر الشبان الذين تحرروا من الشعر القديم شكلا ومضمونا بعض التحرر - مقابلا للشعر الملتزم والمراد بالالتزام الحفاظ على الشكل القديم وعلى الاستعمالات اللغوية الموروثة ، فالشعر الملتزم هو العمودي عندهم وهو مقابل لما يزاوله انصار الجديد من شعر متحرر ، او ما سموه « بالشعر الحر » على سبيل « المصطلح الفني »

وانصراف « العمود » الى هذه الدلالة الجديدة شيء مستحدث ٠ فالعمود من عبارات النقاد الاقدمين ، فقد أثر عنهم أن أبا تمام الشاعر قد خرج على عمود الشعر العربي ، كما خرج بشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد ٠ وأنت اذا تتبعت خروج هؤلاء عن « العمود » المعروف وجدت هذا الخروج لا يتعدى الاستعمالات اللغوية التي لم تستعمل عند من يعتد بعربيتهم ، والعربية المعتمدة في هذا الباب عربية الجاهليين والصدر الاول من العصر الاسلامي بحدود دقيقة فادخل فيه طائفة من الشعراء ممن يستشهد بأشعارهم ، وأخرج طائفة أخرى لم تسلم لها هذه الميزة ٠

ومن أمثلة خروج أبي تمام عن « العمود الشعري » ما ذكره ابن الاثير في « المثل السائر » واستعماله « الأخدع » من عظام الوجه استعمالا خاصا لم يألفه النقاد فقد جاء قوله :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد
أضججت هذا الأنام من خرقك

فنسبة « الأخدعين » للدهر شيء لم يحتمله النقاد والى هذا أشار عبد القادر الجرجاني في « دلائل الاعجاز » (١) في قوله : « انك ترى الكلمة تروقك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني
وجعت من الاصغاء ليتا وأخدعا

فان لها ما لا يخفى من الحسن ، ثم انك تتأملها في بيت ابي تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك ٠٠٠٠٠

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير اضعاف ما وجدت لها هناك من الروح والخفة ٠ ولم يقل الامام الجرجاني بمسألة الخروج عن العمود الشعري المعروف كما فعل النقاد الاقدمون ، أما ابن الأثير فقد ذكر ان سبب ذلك هو افراد الاخدع في بيت الحماسة وتثنيته في بيت ابي تمام ، ومؤدي كلام ابن الأثير أن هيأة اللفظة من عوامل تقرير جمالها وحسنها ، فحالها من الافراد والتثنية والجمع قد يكسبها شيئا من الحسن او يلبسها ذلك الحسن ٠

وعرض الآمدي في « الموازنة » (٢) لبيت أبي تمام مثيرا بعدم المناسبة في استعارة الاخدع للدهر في هذا المقام ، اذ ليس في أحوال الدهر ما يكون الاخدع رديفا له ٠ وقد فسر هذا بالخروج عن العمود الشعري ، والى مثل هذا الخروج اشاروا الى ما عرض في شعر ابي تمام في مواضع أخرى ٠ كما عابوا على ابي نواس قوله :

بح صوت المال مما   منك يشكو ويصيح

فاسناد البحة لصوت المال شيء لم يألفه النقاد فاستغربوه واستنكروه ، قال ابن رشيق (٣) : « انما يستحسنون الاستعارة القريبة وعلى ذلك مضى جلة العلماء ، واذا استعير للشيء ما يقرب منه ويليق به كان أولى مما ليس منه في شيء ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبي نواس :

بح صوت المال مما ٠٠٠

فأي شيء أبعد من صوت المال فكيف يبح من الشكوى والصياح » ٠ على أنهم عدوا عدول ابي نواس عن بكاء الديار والوقوف عليها خروجا عما جرى عليه

(١) الجرجاني ، دلائل الاعجاز ص ٣٧ « طبع المنار » ٠

(٢) الآمدي ، الموازنة (١٠٥ - ١٠٧) طبع الجوائب

(٣) ابن رشيق ، العمدة ص ١٨١ (مطبعة امين هندية بالقاهرة سنة ١٣٤٦) ٠

الشعراء الفحول ، ولم يكترث أبو نواس لأقوال هؤلاء فقد سخر من أولئك الذين وقفوا على الديار وبـكوا في اطلالها ورسومها • وقد عابوا على أبي تمام اشياء طفيفة ذهبوا الى أن حبيب بن أوس قد خرج عن سنة السابقين فيها ، ومن ذلك مطلع قصيدته البائية الذي يقول فيه :

على مثلهـا من أربـع وملاعب
أذيلت مصونات الدموع السواكب

فاستعمال « حرف الجر على » يؤذن بالدعـاء عليها وهو شر ومن هنا استقبح أن يبتدأ بشيء يوحي بالشر ويلمح اليه ، ومثل هذا ما ذكره الصولى في شرح ديوان ابي تمام في قوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

حيث قال عاب قوم هذا وقالوا لا يقال : فليكن كذا الا للسرور نحو كذا فليكن الفرح ، ولكن الصولى يقول : وما علمت شيئا يقال في تعظيم الفرح الا قيل في تعظيم الحزن وقد جرت البشارة بما يسوء نحو : « فبشرهم بعذاب أليم » وهذا قريب مما نحن فيـه ونحوه (٤) •

وكان ابو تمام يميل الى خلق الاستعارات الجديدة مما هو غير جار في استعمالهم اللغوي كقوله :

لا تسقني مـاء الملام فـانني
صب قد استعذبت ماء بـكائي

واستعمال الماء عندهم في العظيم المخبر والحسن المنظر ، أما استعماله في خلافه فمستهجن (٥) • وقال الصاحب بن عباد : « لم يزل البلغاء يستقبحون ماء الملام في قول ابي تمام حتى غزوا « بحلواء البنين » في قول المتنبي :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا
فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل

وقد بلغ من استغرابهم لهذا الاستعمال ما كان من سخرية من أخذ وعاء وذهب يطلب قطرات من ماء الملام ، فأجابه أبو تمام انه لم يعطه شيئا قبل أن يأتيه بريشة من « جناح الذل » اشارة الى قوله تعـالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » • وجواب الشاعر يشير الىالتوسع في الاستعمال في بابالاستعارة، فكما جد في لغة التنزيل استعمالات لم تكن جـارية على السنة العرب الجاهليين ، فكذلك كان من حق الشاعر والناثر ابتداع الاساليب واختراعها ، ولا ضير في ذلك فالعربية جرت على التوسع في الاستعمـال ، وسلكت في هذا الميدان طرقا بعيدة •

واشتد النقاد على أبي تمام واضرابه ممن سلكوا سبيل الابتداع في الاستعمال ، فقالوا : « ان أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ثم اتبعه ابو تمام ففسد شعره »(٦) ولعل الكلمة القصيرة التي توجه فيهـا اسحاق الموصلي الى ابي تمام في قولـه : « يا فتى ما اشد ما تتكىء على نفسك » خير ما يوضح نظر النقادالتقليدي الجامد ، اولئك الذين لم يؤمنوا بالتجديد والخروج على طرائق القول عنـد المتقدمين • وكان هؤلاء يسمون شعر بشار وابي نواس واضرابهما ملحا وطرفا وكانوا يستحسنون منـه البيت بعد البيت استحسان النادرة ، ويجرونه مجرى الفكاهة ، أما أبو تمام واضرابه في نظرهم فلم يقرضوا بيتا • ومن الطريف ان نورد خبرا عن الاصمعي وكيف كان ينظر شعر المحدثين وذلك ان اسحاق الموصلي انشده :

هل الى نظـرة اليك سـبيل
فيبل الصـدى ويشفى الغليل
ان مـا قل منك يكثـر عنـدي
وكثـير ممن تحب القليـل

فاستحسنها الاصمعي وقال : « والله هذا الديباج الخسرواني » ثم سأله لمن تنشدني ؟ فقال اسحاق : انهما لليلتهما ، فقال : « لا جرم والله ان اثر التكلف فيهما ظاهر » (٧) •

والذي يلاحظ على هؤلاء النقاد أن أغلبهم علمـاء لغة ، ومن أجل ذلك فلم يتوجه نقدهم الا الى الاستعمال اللغوي ، فما خرج عن القوالب المعهودة عد زيفا مما ابتدعه المحدثون ، وما زلنا نجد بين المعنيين باللغة من يذهب هذا المذهب المتشدد في المحافظة على القديم • فقد قال ابو عمرو بن العلاء وهو من علماء اللغـه الاقدمين ، ومن رواة الشعر الاوائل في الكلام عـلى الشعراء المحدثين : « ان قالوا حسنا فقد سبقوا اليه ، وان قالوا قبيحا فمن عندهم »(٨) • وهذا يلخص نظرهم الجامد لمادة النقد ، وحصرهم للجيد في القول في فترة محدودة معروفة •

ومما أثر من الخليل بن أحمد أن رجلا أنشده : « ترافع العز بنا فارفعنا » ، فقال له الخليل : ليس هذا شيئا ، غير ان الذي انشده هذا البيت ، رد عليه

(٤) الخفاجي ، طراز المجالس ص ٥١

(٥) المصدر السابق ص ٥

(٦) الآمدي ، الموازنة ص ١٣

(٧) الجرجاني ، الوساطة ص ٤٩ القاهرة ١٩٤٠

(٨) ابو الفرج الاصبهاني ، الاغاني ١٢/١٧

فما تقول في قول العجاج : « تقاعس العز بنا فاقعنسسا » (١٠) ٠

ولم يكن لعلماء اللغة وعلماء النحو بصر بالشعر ونقده ، ولكنهم باشروا هذا الفن فقصروا همهم على النظر في الاستعمالات اللغوية وانصراف اللفظ الى معنى دون غيره ، ولم يكن القول بفكرة تبدل المعاني والدلالات ، وتطور ذلك تبعا للزمان والمكان ، مفهوما عندهم ٠ على أن هؤلاء الشعراء المحدثين ما كانوا ليأبهوا بأقوال هؤلاء ، فقد روي أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر سأل البحتري عن مسلم بن الوليد وابي نواس أيهما أشعر فقال : « ابو نواس » فقال : ان أبا العباس ثعلبا لا يوافقك على هذا ، فقال ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، انما يعلم ذلك من دفع في سلك طريق الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته » (١١) ٠

اما ابن الاثير في « المثل السائر » فقد رفض اقوال هؤلاء العلماء ، وقال غير مرة بلهجة قوية ساخرة : « ليس النقد من عمل هؤلاء ، وكأنه يؤمن في قوله هذا بمسألة الاختصاص ، وعلى هذا فقد رفض قول أبي الفتح عثمان بن جنى في كثير من المسائل التي تتعلق بالنقد مشيرا أن عليه ان يعني بالفاعل والمفعول ويترك شؤون النقد لمن يضطلع بذلك ٠ »

على أن خير من بحث مسألة « عمود الشعر » هو الامام المرزوقي(١٢) في مقدمة شرحه على « الحماسة » والعمود كما يرى المرزوقي يتناول عدة مسائل تدخل جميعها في حيز النقد وليست اللغة الا احدى تلك المسائل فهو يقول : « فهذه سبعة ابواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها معيار ، معيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فاذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء مستأنسا بقرائنه ، خرج وافيا ، والا انتقص بمقدار شرابه ووحشته ٠ وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال ، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم ، وهذا في مفرداته وجمله مراعى لان اللفظة تستكره بانفرادها فاذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينا ٠٠٠ »

ثم يتكلم عن عيار الاصابة في الوصف ، وعيار التحام اجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن ، وعيار الاستعارة الذهن والفطنة ٠٠٠٠٠ وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية طول الدربة ودوام الدراسة ٠٠٠ واما القافية فيجب ان تكون كالموعود به المنتظر يتشوقها المعنى بحقه واللفظ بقسطه والا كانت قلقة في مقرها مجتلبة لمستغن عنها (١٢) ٠ وهو يدعو هذه المسائل « بالخصال » ، والمرزوقي في هذا التحديد الدقيق الوافي يستوفي مادته في النقد من وجوهها عامة ، وهو غير مقلد في هذا الموضوع ، ولا يحكم على الشاعر حكما قسريا لانه لم يجر في طريق المتقدمين او أنه محدث لا يأتي الا بالقبيح ، ذلك أن يقول : ان لكل من هذه الابواب معيارا فعيار المعنى ان يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، وهذا ما يخالف فيه النقاد الذين سبقوه ، والذين لا يؤمنون الا بالتقليد والمحاكاة كما اسلفنا ٠

والمرزوقي يتحدث عن كل مسألة حديثا فنيا فاللفظ عنده ما حكم به الطبع والرواية والاستعمال واخضاع اللفظ لهذه العناصر الثلاثة دعوة الى أن اللغة مادة يصنعها الناس وتجري على السنتهم وتشيع في استعمالهم فاذا جد فيها شيء واستساغه الطبع وجري به الاستعمال فهو شيء مقبول حسن ، وهذه فكرة جديدة يقول بها المرزوقي مخالفا النقاد الاقدمين من علماء اللغة الذين أنكروا على الشعراء المحدثين أن يستعملوا شيئا لم يجر على السنة المتقدمين من الشعراء ٠ والى مثل هذا أشار الجاحظ في البيان(١٣) « متى شاكل اللفظ معناه ، واعرب عن فحواه ، كان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجه الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمينا بحسن الموقع ، وبانتفاء المستمع » ٠

وعلى هذا فليست مسألة الخروج على عمود الشعر مقصورة على الاستعمالات الجديدة اللغوية التي اخذ بها ابو تمام واضرابه من الشعراء المحدثين على رأي الامام المرزوقي ومن سار على نهجه النقدي غير أن شعراءنا الجدد ، والمتأدبين من الشبان يستعملون في عصرنا هذا مصطلحا جديدا قد اخترعوه لانفسهم متخذين من لفظة « العمود » وسيلة في بناء هذا « المصطلح » ، وهو قولهم « الشعر العمودي » كما جاء ذلك في مقالة الشاعر بلند الحيدري المنشور في مجلة « الاديب العراقي » فهو يقول : « يحاول بعض كتابنا في الادب والنقد – وما اكثرهم – ان يفتعل صراعا وخلافا جذريا بين الشعر العمودي والشعر الحديث ٠٠٠ » (١٤) فكأن المراد بالشعر العمودي هو النمط الشعري الذي يلتزم بالقافية

(١٠) الجرجاني ، دلائل الاعجاز ص ١٨٣

(١١) هو احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الاصبهاني المتوفي سنة ٤٢١ ترجمة ياقوت في ارشاد الاديب ٠

(١٢) المرزوقي ، شرح الحماسة ٩/١

(١٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ٢٠/٢ المطبعة الرحمانية ١٣٤٥

(١٤) الاديب العراقي العدد الاول ١٩٦٢ « خواطر في الشعر العراقي الحديث » ص ٤٤

المعروفة والاوزان التقليدية التي ابتدعها الخليل ، كما ان المراد بالشعر الحديث شيء آخر يقوم على التحرر الى حد ما من هذين القيدين . وأنا لا أريد أن أظل كثيرا مع السيد الحيدري فهو يعرض لاقوال من خاضوا في هذا الميدان ومن قالوا بثورة اصحاب الجديد ومن رد على هؤلاء والمقالة طريفة مفيدة ، ولكني اقف عند هذا المصطلح الجديد وهو « الشعر العمودي » الذي اصفه بالجدة لابتعاده عما اريد بالعمود عند النقاد الأقدمين ، فاذا ضيقنا مفهوم العمود وأخذنا برأي علماء اللغة من النقاد الذين عدوا الاستعمالات الجديدة التي جاء بها المحدثون خروجا عليه ، وجدنا مصطلح « الشعر العمودي » وهو المصطلح الجديد غير منسجم ، ذلك أن كثيرا مما يدعوه اصحابنا « بالشعر العمودي » من شعر عصرنا ، خارج على « العمود » الذي قال به النقاد الاقدمون ، فلكثير من هؤلاء الشعراء طرائق في التعبير لم ترد في الشعر القديم . وقد يكون هؤلاء قد التزموا بالعمود اذا اخذنا برأي الامام المرزوقي وأضرابه ، على أن صفة الخروج وعدمه ليست ملازمة لهؤلاء في ضوء هذا المفهوم الجديد للعمود .

فاذا جئنا للشعر الحديث المتحرر من القيود ، والذي يقوم على فهم جديد للوزن والقافية ، وجدناه خارجا على « العمود » من حيث الاستعمالات اللغوية ، ذلك أن « الشعر الحديث » واريد به شعر الشبان الذين سلكوا نهجا جديدا كالحيدري والسياب والبياتي والملائكة ، قد جاء بلغة جديدة اصولها عربية ودلالاتها جديدة ، وهذه الجدة يقتضيها الفهم الجديد للفن وسآتي على هذا الموضوع غير أن شعر هؤلاء لا يخرج على المعايير التي اشار اليها المرزوقي التي يسير فيها « عمود الشعر » ، وعلى هذا فشعر هؤلاء الشبان المجددين لم يخرج على العمود ، على أن صفة الخروج وعدمه ليست لازمة ، ذلك أن هذه المسألة تتعلق بمقدار ما يصيب الشاعر من قواعد الفن .

ومن هنا فعبارة « الشعر العمودي » قاصرة وهي لا تؤدي الى المقصود بها والمراد منها ، ومن شرائط المصطلح الفني أن يستوفي الضبط والدقة .

قلت ان للشعر الجديد لغة جديدة اصولها عربية ودلالاتها جديدة ، وهذا شيء طبيعي في أدب جديد له مفهوم جديد ، فاللغة مادة متطورة ومتجددة ما دامت حياتنا التي نحياها متطورة متجددة ، والتجدد والتطور ضربة لازب في هذه الحياة ، والتعبير الشعري كما يقول احدهم جزء من الحالات النفسية والشعورية ، وهي مسألة انفعال وحساسية وتوتر ، ويعود جمال اللغة في الشعر الى نظام المفردات وعلاقاتها بعضها ببعض ، وهو نظام لا يتحكم فيه النحو ، بل الانفعال او التجربة ، ومن هنا كانت لغة الشعر لغة ايحاءات(١٥) .

ويحسن بنا أن نشير ثانية الى ما جاء في مقالة الاستاذ الحيدري ، فهو يقول : « ... كان الطابع المميز لشعرهم والذي ظهر جليا في المجاميع الشعرية التي صدرت ما بين عامي ١٩٤٦ - ١٩٤٧ هو الدعوة الى الرومانتيكية والاهتمام بالحدث النفسي الداخلي عند الشاعر مع تقويم جديد للكلمة والبيت والموسيقا في القصيدة فالشاعر هنا يتجنب الى حد ما الطول فيها لأنه يتجنب التكلف والبحث عن المفردات ويتجنب الغريب من الالفاظ لان الكلمة البسيطة في تركيبها والمتداولة بين الناس تهب القاريء ايحاءا اكثر لقربها من حياته اليومية ويتجنب التأكيد على القافية الواحدة لما تحمل من نغم ممل متكرر ، وتحولت الصورة على أيدي هؤلاء الشباب عن مجالها العيني الى مجال حسي مشحون بالايحاء بدلا من الوصف والتقرير وهو يقول في مكان آخر من المقالة نفسها : « ... وهكذا تكون البساطة سبيلا حيا غنيا جاء به استعمال الشاعر للكلمات المألوفة والمبنية على كيفية معينة في ذلك الاستعمال من حيث تحديد مجال دورها الذي تدور فيه ، فالمفردة جزء من حركة عامة تشمل القصيدة كلها ولا بد لها أن تجد مكانا في تركيب جديد للبيت في الشعر .. » (١٦)

والمفهوم الجديد للكلمة يخامر اذهان طائفة من الشعراء الشبان الذين رزقوا الموهبة الشعرية ، فهذه نازك الملائكة تعرض للموضوع نفسه في مقدمة مجموعتها « شظايا ورماد » فتشير الى أن الكلمة العربية ما زالت تختزن طاقة ايحائية لم يقيض لها أن تكتشف ، ومن هنا فما زالت الكلمة قادرة على أن تقف بالدلالات الجديدة على اساس من المفهوم الجديد للكلمة من حيث قدرتها الايحائية (١٧) ...

وبعد فان لم يكن لنا قبول الجديد ، والقول به فكيف يتسنى لنا أن نفهم قول الشاعر :

سكر الليل باللظى المخمور
فتترى عن غرفة وسرير
كان يجثو في قلبها المخدور
. . . .
. . . .
وغفت ضجة الحياة فماذا

---

(١٥) مجلة الفكر التونسية « الشعر العربي ومشكلة التجديد » العدد السادس ١٩٦٢ ص ٢٢

(١٦) بلند الحيدري ، الاديب العراقي العدد الاول ١٩٦٢ ص ٤٢ ، ٤٦

(١٧) نازك الملائكة مقدمة شظايا ورماد .

قوميتنا العربية بين عهدين

بقلم الدكتور حافظ الجمالي

الشائع بين الناس ان قوميتنا العربية لم تعرف سبيلها الى الوجود الا منذ أربعة عشر قرنا تقريبا عندما دخلت التاريخ من بابه العريض ، واحتلت فيه مكان الصدارة بين الامم ، وأخذت بالاسلام دينا ، تنشره بين الناس على صورة مثل عليا جديدة تدعو الى المساواة بين الناس ، وتزيل عنهم الفروق الطبقية ، وتجعلهم سواء لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى .

غير أن من الحقائق التاريخية الثابتة أن العرب أنشأوا دولا قديمة العهد جدا ، وأن أقدم هذه الدول التي عرفها التاريخ ، حتى الآن ، هي الدولة النبطية التي عاصرت الاسرة الخامسة من أسر الفراعنة ، وذلك قبل ثلاثة آلاف سنة من ميلاد المسيح ، على الاقل ، وأن دول العرب تتابعت بعد ذلك ، فما تنقرض دولة الا لتتبعها أخرى ، لا سيما في جنوب الجزيرة العربية ، في بلاد اليمن السعيدة ، التي بلغت الحضارة فيها شأوا نستطيع أن نتصوره بعض الشيء ، اذا نحن ذكرنا ما جاء به القرآن الكريم في وصفها : لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . » ولا نظن أن الحضارة قد بلغت في الجزيرة العربية بعد ذلك مبلغا يمكن أن يوصف بمثل هذا الوصف .

ومع ذلك فان وثبة العرب الكبرى ، تظل أعظم وثبة عرفها لهم التاريخ . ذلك أن القبائل المتفرقة تنشىء دولة مركزية واحدة ، وتخضع لنظم وقوانين صادرة عن سلطة مركزية جامعة ، ولاول مرة تقريبا في التاريخ تنشأ دولة ذات مثل عليا انسانية ، واسعة الشمول ، غنية المضمون ، وينشأ لديها تصميم على جعل العدل والمساواة أساسا للتعامل بين الافراد وبين الامم ، كما ينشأ لديها اعتقاد بأنه ما من قوة تستطيع أن تقف في وجهها اذا هي ظلت مخلصة للرسالة التي حملتها ، مهما تكن قوتها ضعيفة ، حتى لقد تلقى عمرو بن العاص رسالة من عمر بن الخطاب يقرعه فيها أشد التقريع

حرك الحسن في الدجى المخمور

فاللظى المخمور ، والقلب المخدور ، والدجى المخمور ، استعمالات جديدة تقوم على اسس جديد لمفهوم التجربة الشعرية التي لا يقف في وجهها قواعد مقررة، تحدد المجاز والاستعارة والتوسع من فنون القول ، ثم أنها لا تتنكر لما قال به المرزوقي في مسألة « العمود » . فاذا قرأت هذا وعرجت على « الجواهري » لتعيد قوله :

سلام على هضبات العراق
وشطيه والجرف والمنحنى

على النخل ذى السعفات الطوال
على سيد الشجر المقتنى

على الرطب الغض اذ يجتلى
كوشى العروس واذ يجتنى

بايساره يوم اعذاقه
ترف وبالعسر عند القنى

وبالسعف والكرب المستجد
ثوبا تهرأ وثوبا نضا

ودجلة اذ فار آذيها
كما حم ذو حرد فاغتلى

ودجلة تمشى على هونها
وتمشى رخاء عليها الصبا

تقرأ هذا وذاك فتحس أن المعايير الصحيحة في النقد متوفرة ، وأن هذا وذاك قد بلغ حظه من الجمال الفني ، وبعد أليس هذا هو العمود في الشعر وهو الشعر العمودي لا كما يريده اصحابنا ، كما أنه بنجوة عن المفهوم الضيق للعمود الذي قال به علماء اللغة القدامى ــ غفر الله لهم ــ .

ويلومه أشد اللوم ، لانه لم يوفق بعد الى فتح مصر ، ويرجع عدم التوفيق الى تلكؤ في طاعة الله •

ولكن طبيعة الاشياء قادت العرب ، بحكم الرسالة التي حملوها ، والنجاح الذي أصابوا ، والمثل العليا التي أشاعوها ، الى الاعتقاد بأنهم الامة السيدة • ولم يكن هذا الاعتقاد غريبا عنهم من قبل ، فهم عرب يعربون بلغتهم عما يجول في خواطرهم ، أما العجم ، فهم عجم لانهم لا يعربون او لا يفهمون مقاصدهم ، كالحيوان الاعجمي • ثم انهم ، على ضآلة شأنهم من قبل ، كانوا يحتقرون الاعاجم جملة ، وينظرون الى أولادهم من غير العربيات كأنهم أولاد من الدرجة الثانية ، أو قل هم هجناء لا يجوز ان يعاملوا هم والاصلاء على حد سواء • أما وقد جاء الاسلام ، وتتابعت الفتوحات ، وتلاحقت الانتصارات ، وانهارت الدول الضخمة أمام العدد الضئيل من العرب الفاتحين ، فانه من الطبيعي أن يشعر العربي أن هذا كله ليس الا برهانا أكيدا على تفوقه العرقي • ولئن انقلبت هذه المشاعر الى عصبية قومية ، فلا بد وأن يكون ذلك الامر طبيعيا •

ويقول صاحب كتاب ضحى الاسلام في وصف هذه العصبية : ان الحكم الاموي لم يكن حكما اسلاميا يسوى فيه بين الناس ، ويكافأ فيه من أحسن ، عربيا كان أو مولى ، ويعاقب فيه من أجرم ، عربيا كان أو مولى • ولم يكن الحكام فيه خدمة للرعية على السواء ، انما كان الحكم حكما عربيا ، والحكام فيه خدمة للعرب على حساب غيرهم ، كانت تسود العرب فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الاسلامية ، فكان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل • فالعمل حق اذا صدر عن عربي من قبيلة ! وهو باطل اذا صدر عن مولى أو عربي من قبيلة أخرى •

وكانت هذه العصبية القومية تتجلى في السلوك اليومي وفي الاقوال السائرة ، وفي النظرة الاجتماعية ، ومن المعروف مثلا أن بني أمية كانت لا تستخلف بني الاماء ، وقالوا : لا تصلح لهم العرب ، وان العرب كانت تسمي ابن الامة هجينا ، وترى ذلك عيبا فيه • ويحدثنا صاحب عيون الاخبار أن اعرابيا ذهب الى سوار القاضي ، فقال : ان أبي مات وتركني وأخا لي ـ وخط خطين ناحية ـ ثم قال : وهجينا لنا ـ ثم خط خطا آخر ناحية ، ثم قال كيف ينقسم المال بيننا ، فقال : المال بينكم أثلاثا ان لم يكن وارث غيركم ، فقال له ، لا أحسبك فهمت ! انه تركني وأخي وهجينا لنا ، فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الاعرابي : أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي ؟ قال : أجل ! فغضب الاعرابي ، وقال : تعلم ، والله انك قليل الخالات بالدهناء ولم يكن بالدهناء اماء • وحكى الجاحظ قال : « وقلت لعبيد الكلابي وكان فصيحا فقيرا • أيسرك أن تكون هجينا ولك ألف جريب ؟ قال : لا أحب اللؤم بشيء ! قلت فان أمير المؤمنين ابن أمة • قال : أخزى الله من أطاعه

وروى الاغاني : أن رجلا من الموالي خطب بنتا من أعراب بني سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة ، وواليها يومئذ ابراهيم بن هشام بن اسماعيل ، فشكا اليه ، فأرسل الوالي الى المولى ، ففرق بين المولى وزوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه • وأسرع الشعراء فامتدحوا عمله أعظم مديح ، وأكبروه أشد الاكبار ، حتى ليشعر الانسان بأن ما فعله هذا الوالي كان يستجيب لحكم الوجدان العربي ، القائم في ذلك الحين •

ولكن هل كانت العصبية هي السمة المميزة الوحيدة للقومية العربية ، أو أنه كان فيها مضمون آخر يطبعها بطابعه • الحق أن المثل العليا التي دعا اليها الاسلام كانت هي المضمون الحقيقي للقومية العربية ، وهذه المثل العليا لا تقوم على ارغام الناس على اعتناق الدين الاسلامي ، فهذا أمر لم يحاوله أحد من خلفاء المسلمين ، ولكنها تقوم على اشاعة جملة من المبادىء والقواعد في تنظيم العلاقات الانسانية ، ولم تكن هذه المبادىء شيئا آخر غير العدل والمساواة والانصاف ، والاخذ بين الضعيف حتى ينال حقه ، وعلى يد القوي حتى يؤخذ منه الحق •

وبقيت مع ذلك ثغرة في هذه المجموعة من المثل العليا ، انها بقيت في مستوى روحي خالص ، وكانت تريد من الوجدان الفردي ان يتقمصها ، ويعمل بوحيها ، ويزجر بزواجرها • ولم تنتقل من هذا الوجدان الفردي الى القوانين المقررة ، والمؤسسات الاجتماعية المقننة • ومن ناحية أخرى لم تكن هنالك تربية حقيقية منظمة تستطيع ان تنشىء الوجدان على حب هذه المثل العليا ، وقبولها كأساس للتعامل بين الافراد والجماعات • ولما كانت ضرورات الحياة على تناقض صريح مع هذه المثل فقد انتهى الناس بالضرورة الى حمل مثلهم العليا حملا نظريا دون ان يحاولوا تطبيقها في الواقع الا قليلا •

وتمضي الايام • ويدور الفلك دورته ، ويعود العرب كما كانوا قبل وثبتهم بالاسلام ، شعوبا متفرقة ، ثم مستعمرة ، ويذهل العرب عن قوميتهم ذهولا شبه تام ان لم يكن تاما • ثم تتجمع العوامل المختلفة التي تساعد العرب على استعادة الشعور بوجودهم وبقوميتهم كوحدة تامة ، لاسبيل الى التفرقة بين عناصرها المختلفة• الا أن الشعور القومي الآن يختلف اختلافا كبيرا عما كان عليه في الماضي •

وأول وجه من وجوه الاختلافات ان هذا الشعور القومي لا يحمل الان أية عصبية • وكما كانت هذه العصبية من قبل نتيجة منطقية للحوادث التاريخية الهائلة التي مثل العرب فيها دور القادة والابطال ، فان اللاعصبية الماثلة الآن في شعورنا القومي ، انما هي نتيجة لكل هذه الحوادث التاريخية الجديدة التي مثل فيها الاجانب دور القادة • ولقد تعلمنا من هذا التاريخ أننا ان استطعنا أن نكون قادة للعالم وللتطور التاريخي في بعض الاحيان ، فان الامم الاخرى تستطيع بدورها أن تحتل مركز القيادة بدلا منا ، وتبعا لذلك فان شعورنا القومي يعي هذه الحقيقة ، ويحسن التخلي عن كل عصبية ، ويعرف أن شأنه في العالم كشأن أي شعور قومي آخر •

ولقد أتى على العرب حين من الدهر شعروا فيه بنوع من رد الفعل على تفوق الامم اجخرى ، أنهم أمة ضعيفة المواهب بالفطرة ، وأن صور الحضارة لا يمكن ان تكون من انتاجها • وكان هذا الشعور مشتركا بين العرب وبين سائر الشرقيين الآسيويين • الا أن الشعور القومي المعاصر يتعالى فوق هذه الصفة ، ويعتقد جازما أن العرب ان لم يكونوا أرقى من الامم الاخرى في كل شيء ، فهم ليسوا دون أية أمة في أي شيء ، وأن الآخرين ان كانوا يملكون صورا من المواهب لانملكها ، فنحن بالمقابل نملك صورا من المواهب لا يملكها الآخرون •

وفرق آخر هو أن المثل العليا التي أشاعها العرب، **خلال** وثبتهم الاولى ، لم تعد مجرد اعتقادات تقبع دوما في زاوية من زوايا الوجدان الفردي عند الاتقياء والصالحين ، بل انها اصبحت فلسفات اجتماعية كاملة ، تريد أن تحل المثل العليا في الواقع ، وأن تنقلها من الزوايا المنسية في الوجدان الفردي الى الهضبات الواضحة من الوجدان الاجتماعي ، ومن الاوهام الخيالية ، الى المؤسسات الاجتماعية ، فلا عجب ان أصبحنا نشعر الآن أن كلمة العدل ، ترادف الاشتراكية ، وأن كلمة الانصاف ترادف كلمة الضمان الاجتماعي ، وأن يد العامل التي قبلها النبي العربي وقال هذه لا تمسها النار ، قد أصبحت يدا تصون حرمتها القوانين ، وترعى كرامتها الدولة ، ويرفعها الوجدان الاجتماعي الى المحل اللائق بها من التقدير والاحترام •

وبعد فان الشعور القومي العربي الآن غيره في الماضي • انه كان أقرب الى العصبية القومية ، وهو الان أبعد ما يكون عن العصبية ، وكان من عناصره احتقار الموالي والامم الاخرى ، فصار من عناصره التآخي بين الامم ، والتساوي بينها في مبدأ الكرامة الانسانية • الا ان هذا الشعور القومي لم ينس أبدا ان يكون ركيزة للمثل العليا • ولقد كان لها ركيزة في الماضي عندما حمل رسالته المقدسة ، وأشاعها بين الناس • وما يزال لها ركيزة ، لانه يحرص الان أكبر الحرص على دعم مبادىء رسالته هذه ، ونقلها من عالمها الروحي المضمر ، الى عالم الواقع الظاهر •



بقلم الدكتور : محمد حاج حسين

كان الاعياء باديا عليها ، وبعد أن التقطت أنفاسها قليلا قالت : هل يمكن أن اعمل خادما عندكم ؟٠

وقلت : لماذا عندنا ؟٠

ـ سمعت أنكم طيبون ٠٠

وأطرقت برأسها ، وقد خضب الاحمرار وجهها الضاحي ٠

وغلغلت نظراتي فيها ، فأدركت بالبداهة أن وراء هذه الفتاة مأساة ، فهي ليست من صنف الخدم ، فمظهرها الانيق ، وجمالها الوديع ، ورقتها ، كلها تدل على أنها بنت ناس كرام ٠ وكان الليل يرف على المدينة الصاخبة ، فخشيت أن أرفض ، فتخرج الى الظلام ، وقد تتعثر به ، وتزداد مأساتها عنفا ٠

وهتفت : أهلا وسهلا ٠ ليس عندنا مانع ٠

واستراحت على مقعد قريب من زوجي ، وظلت في اطراقة أليمة لا ترفع عينيها الينا الا عندما نوجه لها سؤالا ٠٠ ولما دعوناها الى العشاء اعتذرت ، ولم يجد الحاحنا معها ٠ وبدا عليها التعب ، وقالت لها زوجتي ، يجب أن تنامي ٠٠ لتستريحي ٠

ووافقت بأيماء من رأسها ٠٠ كأنها تود أن تخلو الى نفسها لتناجي همومها ، وقادتها زوجتي الى غرفة نوم أنيقة ٠ ورفعت اليها عينيها السوداوين الفاتنتين اللتين هجع فيهما الالم ٠ وغمغمت قائلة : أنا خادم ، ولست بضيفة ٠

ـ المهم أن ترتاحي لانك متعبة ٠

ـ شكرا ٠

ونهضت مع الصباح شاحبة اللون ٠٠ وسألت عن المطبخ لتعمل ، وقلت لها : لا تتعبي نفسك ، فعندنا متسع من الوقت ٠

وطلبنا اليها أن تشاركنا فطورنا على مائدتنا ، فأحجمت ٠٠ وألحينا عليها ، فجلست معنا أخيرا ٠٠ وكانت حركاتها في تناول الطعام تؤكد ظنوننا ، فهي تأكل برشاقة وأرستقراطية ٠٠ وسألت أن نحدد لها عملها ٠ واستطعنا أن نكسب ثقتها عندما عهدنا اليها بطفلنا الوحيد الذي يبلغ الثالثة من عمره ٠ وقلت لها : ان تربيته هي عملك الوحيد ٠

وبعد يومين اطمأنت الينا ، وانطلقت على سجيتها ، ولمسنا ذكاءها وعمق فهمها ، وأصالتها ٠٠ وكانت باستمرار حزينة ، وان كانت تحاول ان تكتم هذا الحزن ، غير أنه كان يخونها ، فيبدو في لفتاتها ، وحركاتها ، وسكناتها ٠٠

وقلت لزوجتي : المرأة تفهم اكثر من الرجل ٠ ويجب أن تنتزعي منها سرها ٠

وعندما عدت من عملي في المساء كانت قد انتزعت منها سرها ، وحدثتها باكية بكل شيء ٠ وألم بي أسى شديد ، وقلت لزوجتي : هل نتصل بوالدها ؟ وهل نصارحه بما أفضت الينا به ؟ غير أن ترددي لم يطل ٠٠ فيجب أن أخبر أباها بوجودها عندنا لانقذه من هذا الشقاء الذي ظلله اثر غيبة ابنته عنه دون أن يعرف الى أين ٠ وذهبت اليه في متجره الكبير ٠ وقرأت في وجهه الالم العميق ، والحسرة الكاوية تنعقد فوق جبهته التي حفرت فيها الغضون أخاديد ٠ وأدركت أن اختفاء ابنته المفاجيء قد هد قواه ، وأضاف الى عمره عشرات السنين ، وجعله أقرب الى الموت منه الى الحياة ٠

وقلت له دون مقدمة : عندي أخبار عن نائلة ..
وقفز يلهث من مقعده ، وصاح : نائلة .. بنتي .
ـ نعم .
وأسرع يعانقني ، والدموع ترطب وجهه المحموم ، ومن خلال جهشاته تمتم : أين هي ؟ أرجوك .
ـ عندنا في البيت .
ـ أرجوك .. هيا بنا لنراها .
ـ ليس قبل أن تعاهدني ألا تؤذيها .
ـ أؤذيها ... ألا تعلم أنها كل حياتي .
وارتفعت جهشاته ، واستتلى قائلا : لقد فقدت وعيي عندما اختفت . ارحمني .. أسرع بي اليها ..

ودرجت بنا سيارته مسرعة الى البيت ، واستقبلتنا زوجتي ، وسألها بلهفة : أين نائلة ؟
وقلت : انه أبوها .
وأجابت زوجتي : انها في غرفة الطفل .

ولن أستطيع أن أنسى ما حييت المنظر الباكي بين الاب وابنته ، فقد ترامى عليها يجهش كالاطفال ، ويقبلها في كل مكان يقع عليه فمه الظامىء ، وهي بدورها كانت تغمره بقبلها ، وتبكي بحرقة ..

وقال الاب بلهجة حزينة : أهكذا تتركين البيت يا نائلة ؟ ان الموت كان أسهل علي من عملك هذا .
وأردنا أن ننسحب لنترك لهما المجال ليتفاهما .. ولكن نائلة تشبثت بنا ، وقالت : أرجو أن تبقيا معنا .
وشكرنا الاب ، وعالننا أنه لن ينسى جميلنا ، ثم التفت الى ابنتـه وهتف : يجب أن نـذهب الى البيت فورا . ان أمك واخوتك في جنون لاختفائك .

ـ سأبقى هنا في هذا البيت الكريم .
واتسعت عيناه دهشة ، وصاح : ما هـذا المزاح يا نائلة ؟
ـ لن أعود الى البيت .
ـ نائلة .. أرجوك أن ..
وقاطعته قائلة : أريد أن أعمل ، ووجدت في هذا البيت الطمأنينة والراحة ، وتعلقت بالطفل ، ولا أريد أن أتركه ..

ـ وهل أنت بحاجة الى عمل ؟ اننا أثرياء ..
ـ يا بابا .. المهم انني باقية هنا .
ـ أريد أن أعرف السبب .
ـ لا يوجد سبب .
ـ لا بد أن تصارحيني .
ـ ليس عندي شيء لاصارحك به .
ـ ان حالتك غير طبيعية .. ولا بد أن يكون هناك سبب جوهري دفعك الى هذا .

ورفعت نائلة اليه عينين التمع فيهما العذاب .. واوشكت أن تتكلم ، وخشينا أن تلقي القنبلة ، فتتفجر شظاياها على هذا الاب المسكين ، فعولنا على الانسحاب ، ولكن نائلة تشبثت بنا ، ورأيت أن خير طريقة لتفاهمها مع والدها مصارحته . وقلت أشجعها : يجب يا نائلة أن تصارحي أباك .
ـ لن أصارحه بشيء . ويجب أن يتركني لاعيش في سلام مع نفسي .
وصرخ الاب من فؤاد كليم : أتوسل اليك يانائلة أن تصارحيني بالحقيقة .
ـ كل ما في الامر أنني ضقت ذرعا بالحياة في البيت .
ـ هل أذاك أحد .. كلنا نعبدك .. هل قصرنا في حقك بشيء ؟.
ـ لا .
ـ ما معنى هذا النشوز ؟
ـ لن أذهب معك .
وقلت : يجب يا نائلة أن تخضعي لوالدك .

ـ لن أخضع له .. واذا تضايقتما مني ، فسأجد مكانا آخر .. واذا تعسر علي ايجاده ، فليت أرحم من الموت لي .
كانت لهجتها محملة بكل معاني اليأس ، فارتاع

والدها ، وتدفقت دموعه . كان منظره ذليلا يستثير الشفقة .. وارتفع عويله وهو يقول : وخطيبك ؟ ماذا يقول ؟

وكأن تيارا كهربائيا صعقها ، فقفزت من مقعدها ، وقد امتلأ وجهها بكل امارات الحقدوالتقزز ، وصرخت : خطيبي .. انني أريد له الموت .

وصعق الاب وقال : ولكنك انت التي وافقت عليه .

ـ سأقتله اذا وقعت عيناي عليه .

ـ خطيبك سليم .. الشاب المثالي الذي تتمناه كل فتاة . وتدخلت في الحديث ، وهتفت : من السهولة أن تفسخ هذه الخطوبة .

وقال الاب : كيف ؟ انه من خيرة الناس ثقافة ومركزا .. ونحن الان نعد الجهاز .

وصرخت نائلة : ليذهب الى الجحيم .. سأضربه بالرصاص عندما تقع عيناي عليه .

وراح الاب المحزون ينقل نظراته الآسية بيننا وبين ابنته التي زايلتها وداعتها ، وبدت كاللبوة الهائجة .. وهتف : انني مستعد ان افسخ الخطوبة .. ولكن يجب أن نستشير أمك ، لانها هي التي رشحته لك .

وزعقت نائلة : أمي .. ليست أمي .. أنا أكرهها حتى الموت .. ولن ادخل البيت بسببها .

وكان هذا اكثر مما يتوقع الاب ، وأدركت أن سر نائلة أصبح وشيك الاعلان .. واشفقت على هذا الاب الطيب الذي حدق بابنته في ذهول ، وكأنه اكتنه بغريزته كل شيء ، فصاح : أخبريني بالحقيقة ..

وأطبق علينا صمت مروع ، .. وذهبت نائلة الى النافذة ، وألقت نظرة عابرة على الشارع ، وعادت الينا ، وقد حجبت وجهها بيديها ، وانخرطت في بكاء مذيب ، وهي تغمغم قائلة : لا أستطيع .. لا أستطيع ..

وعطف عليها أبوها ، وهزها بعنف ، وقال بصوت متهدج : بل يجب أن تقولي ..

ـ شيء بشع .

ـ قولي .

واقتربت ، منها ، وربت على كتفها ، وقلت : ارفقي بنفسك يا نائلة .

وتطلعت الي بعينين مذعورتين غشيتهما الكآبة ، وثوى فيهما ألم دفين ، وتمتمت : سأخبرك يا بابا بكل شيء .

وتريثت قليلا وتهالكت على الكرسي ناصلة اللون، وقد حاكى وجهها الاموات .. وراح الاب يصوب الى ابنته نظرات مذعورة ، وأبهمت عليه الامور ، وتراقصت الاشباح أمامه .. وغبرت علينا دقائق مثقلة بالاسى ، مترعة بالشجو .. ومادت رجفة قاسية بها ، وهي تهمهم : وجدت أمي مع خطيبي في سرير واحد .

وترنح الاب ،وكاد يهوى على الارض ، واهتز جسده ، وصرخ : انك تكذبين .. أمك شريفة ..

وانطلقت ضحكتها وخازة دامية .. متحدية .. حتى خيل الي أن عقلها قد خولط ، وصاحت : لماذا أكذب يا أبي ؟.

ـ ان امك شريفة ..

ـ ليتني مت قبل أن أرى أمي في هذه الحالة المزرية .

ـ انك تحكمين على امك بالموت .

ـ وهل تريدني أن أتزوج عشيق أمي ؟

وتجلت الحقيقة للاب المفجوع ، فأطرق اطراقة أليمة ، وبكى ، ووثبت اليه ابنته تعانقه وتقبله .. وأقصاها عنه برفق ، فابتعدت عنه قليلا وقالت : سامحني يا أبي .

ـ ألا يمكن أن تكوني مخطئة يا نائلة .

ـ عيناي لا تكذبان .

ـ وكيف حدث هذا ؟

ـ كنت مع اخوتي بالسينما ، في حفلة الساعة الثالثة . وفجأة أصابني صداع شديد ، فلم أستطع متابعة الفيلم ، وعدت الى البيت لاستريح . وفتحت الباب بالمفتاح الذي أحمله معي ، كان كل شيء هادئا.. وترامى الى مسمعي حركة من غرفة أمي ، ففتحت

التقدم والرجعية

قنوع

بقلم: زكي الارسوزي

نقدم فيما يلي مثالين عن منهجين في الحياة : التقدم والرجعية . والمثالان هما فصل التكوين في التوراة ونظرية التطور في الحضارة الراهنة .

زعم علماء بني اسرائيل أن آدم أبا البشر كان أطول عمرا من أولاده وهؤلاء أطول عمرا من أحفادهم . وزعموا أن آدم كان أطول قامة واكمل خلقة وخلقا من أولاده وممن انحدر من سلالته ، فكأن الجيش البشري نسخ من مستنسخ ، كلما ابتعدت الاجيال عن المثال الذي هو آدم طمست معالم الانسانية أكثر فأكثر وتشوهت . وبمقتضى الزعم المذكور أن العهد الذهبي للانسان في ماض قد انقضى عهده ولم تبق للاجيال الا الحسرة لهذا العهد المفقود . ذلك هو النهج الرجعي في الحياة .

ومع ذلك فهل استسلم بنو اسرائيل انفسهم لليأس ؟ ألم تتنكر وثبة الحياة المتجددة في كل جيل بالمسيح المخلص الذي يعيد الى العالم النعيم المفقود ؟ ومن أين اذا لم يكن المثل الاعلى الانساني متجسدا بشرا ، المثل الاعلى الذي يهدى على هدايته الاجيال المضللة ؟ وهكذا تبقى اسطورة اسفنكس الذي يبعث من رماده في كل سنة اسطورة الحياة المتجددة في كل جيل من اجيالها .

واما نظرية التطور فتزعم زعما مخالفا لما ورد في التوراة ، تجد المستقبل خيرا من الماضي والحاضر .، أهي الا نظرة شعارها التفاؤل في نظرية التطور لم يعد الانسان رسول السماء الى الارض وانما هو ابن الارض، مثله بذلك كمثل الاحياء الاخرى . بدأ الانسان بداية دنيئة ومن ثم شق طريقه نحو مركز ممتاز في الطبيعة ، ولما تم له اخضاع ظروف البيئة لمشيئته وتنظيم شروط الحياة تنظيما ينشىء به شخصيته اكمل فأكمل ، لما تم له ذلك أصبح تاج الخليقة . حتى لقد بلغ التفاؤل عند

بابها قليلا ، وألقيت نظرة .. ويا لهول ما رأيت .. خطيبي وأمي معا .. فأسرعت بالفرار ، وحدثتني نفسي بالانتحار ، ولكنني لم أقو عليه .. وهبط علي الليل وحيدة منبوذة أقرب الى الموت مني الى الحياة .. وأخيرا لجأت الى هذا البيت .

وتداعى الاب ، وهو يتلقى هذا الاعتراف القاسي .. وأحسست بالشفقة عليه .. ورفعت نظري اليه .. واشتد عجبي عندما بدا لي مشرق الوجه ، متهلل الاسارير .. فقد استنارت بصيرته ، وقام من مقعده ، وضم ابنته الى صدره بحنان وحب ، ومسح دموعها وقال ضاحكا : لماذا تبكين يا نائلة ؟

– لانني فجعتك بكل شيء .

– بالعكس تماما .. لقد انقذتني من العار الابدي .

– ولكن يا بابا ..

– المسألة بسيطة يا بنتي .. انها طالق مني منذ الان ..

– أبي ..

– لا تهتمي بهذا يا حبيبتي .. أنت والحمد لله شابة .. ومنذ هذه الدقيقة أصبحت مسؤولة عن البيت ، وعن اخوتك وعني .

محمد حاج حسين

فريدريك نيتشه حد القول : ان الانسان حبل مجدود بين القرد والذات (سبرمان) •

أليس من غريب الامر ان تجد كل من النظريتين المتقدم ذكرهما في القرد مفتاحا للغز الانسان ؟ ان يجد اجدادنا في القرد مسخا مترديا للانسان وان يجد ممثلو نظرية التطور فيه محاولة مخجلة للحياة في صعودها من الديدان الى الانسان ؟

ترى ما هي الاسباب التي تجعل الناس ينهجون منهج القدم او منهج الرجعى في تفسير معنى الحوادث؟

لدى تحليل وجهات نظر كل من الاسرائيليين والشعوب الحديثة نجد النهج في التفسير يتبع بنية المجتمع ، فمن الطبيعي ان يرى المسلم في عهد الرسول العهد الذهبي للمسلمين وان يحن الى ذلك العهد • ومن الطبيعي ان يرى المسيحي في عهد ظهور المسيح عهده الذهبي فيحن اليه • وكذلك كان بنو اسرائيل قد رأوا في عهد الآباء عهدهم الذهبي •

ولكن ألسنا نغالي باتخاذنا الديانة والمنطق الرجعي في الحياة متلازمين ؟ لمن هذه الجملة المأثورة : ان ابن الانسان رب السبت أيضا ؟ ألم يعلن المسيح أن الجملة المأثورة المتقدمة شعار كل ديانة ؟ فاذا كان الانسان سيد التقاليد ، فان خطأ المؤمنين في ذهابهم مذهب المنطق الرجعي يرجع على عجزهم عن تمييز المعنى الانساني المحتبى عند الرسول في ظرف تاريخي معين عن الظرف نفسه •

هناك أسباب أخرى تجعل الناس تجد في الماضي ملاذها • الا تدعونا مرارة واقعنا ، نحن العرب ، الى الرجعة الى عهد اجدادنا ، العهد الذي كانت الشعوب تقر لنا بالسيادة ؟ وما البعث اذا لم يكن يقظة الحياة بعد كبوتها ، تلك اليقظة التي تتخذ من اسمى تجليات عبقرية الامة في التاريخ نجم الهداية ؟ الا تسحرنا ذكريات الماضي بروعتها فتدرجنا في سبيل الرجعة ؟ وهل كانت الحياة لتمحى من اجل الذكرى ؟ ام كانت لتستعين بالذكرى كعبرة في انشاء المستقبل ؟

ولكن اذا كانت الديانة والتاريخ يحتمان على الذهن العودة الى الماضي ، فان العالم وما اقيم عليه من صناعة يحفزان به الى المستقبل ، يجعل الذهن على اتصال دائم بالواقع ومتى انضمت الحقيقة الى الحقائق الاخرى المكتسبة ، تدفع الذهن الى السير نحو الامام • فما علينا الا ان نلقي نظرة على تطور علم من العلوم حتى نشعر بشعور التفاؤل في مستقبل أفضل ، وكذلك الصناعة توحي بتقدمها بمستقبل أزهى • اي من شاهد فيلما عن تطور احدى الصناعات كصناعة السيارة مثلا ولم يشعر بسير الحضارة نحو مستقبل احسن ؟

وهكذا تنقل العلم والصناعة المجتمعات من الماضي الى المستقبل بسرعة متزايدة ، تزايدها يتناسب مع انتشار العلم والصناعة فيها •

ان الحياة نفسها في كل من مرحلتيها الشباب والهرم تكشف عن استسلامها لاحد المنهجين : التقدم والرجعية ، للتقدم في الشباب وللرجعية في الهرم • فما دامت الحياة نامية يبقى صاحبها منطلقا في تفاؤله نحو مستقبل أزهى ، ولكن ما ان تعجز الحياة عن التطور في البيئة حتى يبدو الحاجز باهتا ؟ ومن هنا يرجع صاحبها القهقرى الى ذكريات أكثر نشوة من الحاضر •

وكذلك المجتمعات ، فاذا طبع الشيوخ على الناشئة طابع منهج تفكيرهم سيطر المنطق الرجعي على مظاهر الحياة العامة كما كانت عندنا في فترة الانحطاط • ولكن اذا ظل الشباب يفيض رواؤه على الحياة العامة حملت هذه الحياة طابع المنطق التقدمي وظهر عندئذ الشيوخ في مظهر الشباب •

هناك نقطة للاستجلاء وهي الالتباس بين المثالية والرجعية • كلنا يعتقد بتفوق انجيل المسيح على الكتب الموضوعة في الاخلاق منذ ظهور المخلص حتى اليوم • وقد عبر المسيح نفسه عن الحقيقة المشار اليها بقوله : من يحيا حياتي يصبح مثلي ؛ ولكن اين للناس ان يحيوا

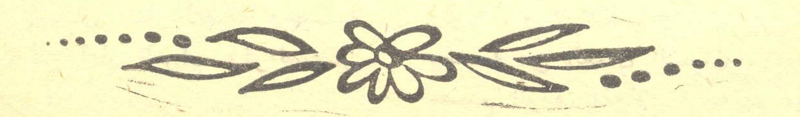
هذه الحياة المؤيدة فيها الاقوال بالاعمال ، وكلنا يعتقد بأن امرأ القيس حامل لواء الشعر عند العرب ، كما وصفه بذلك سيد البلاغة النبي محمد • وكلنا اختبر نفسه في تقصير المقال من البيان عن المعنى في النفس ، وعجز الاعمال في الاخلاق عن تحقيق النية الخيرة ، وذلك ما يجعل الواقع في الاخلاق والفن متخلفا في الظهور عن مناله ومقصرا عنه ، وذلك ما يدعو الى الظن بأن النهج الرجعي والنهج المثالي هما صنوان ، ولكن الالتباس لا يلبث ان ينقشع اذا وعى الناس ان الحقيقة قياس الواقع ، تتعدل بالنسبة اليها العبارة ، سواء أكان الامر في الحوادث الطبيعة او في شؤون الانسان • والحقيقة هي خالدة ، فان كنا نستعين بتجارب ارخميدس وغاليلي ولافوازييه للاطلاع على الحقائق الكونية التي اكتشفها هؤلاء النوابغ فاننا نستعين بالتراث الذي تبلورت فيه خبرات اجدادنا في سبرهم اغوار الحياة الانسانية أيضا • الا ان الحقائق الكونية على مستوى واحد ، فليس للذهن الا أن يلم بها حتى تتجلى له متسلسلة في تقدم مضطرد ، بينما الحقائق الانسانية مختلفة المستويات في الرفعة ، يستلزم الارتقاء اليها حبالا فسيحا ، على قدر ما يهم الخيال بمعالم الحقيقة الانسانية تتحول الحقيقة من حدس مبهم الى بصيرة متلألئة • ولكن اين للناس الخيال والاصالة اللتين تميز بهما مقومات الحقيقة مما يرافقها من ظروف تاريخية طارئة ؟ تميزا لما هو خالد مما هو طارىء نسوق كمثال حياة النبي محمد • كان محمد قد لقب من عشرائه بالامين وعرف بين الناس بالصدق والوفاء وبالصفات الانسانية الاخرى • وكل ذلك من مقومات طبع الانسان ، فما علينا الا ان نسبر اغوار نفوسنا حتى نهتدي اليها ، وذلك ما يجعل تجارب النبي محمد نبراسا تهتدي الاجيال على هدايتها سواء السبيل اهتدائهم على تجارب غاليله الى اكتشاف قوانين سقوط الاجسام • وهكذا تبقى التجربة مستقلة عن الزمن منزهة عن متناقضاته : الماضي والمستقبل ، الرجعية والتقدم •

ولكن ما ان تلتبس ظروف المكان والزمان التي تكتنف الحياة بالحياة نفسها حتى يقوم الرمز مقام المعنى • وعندئذ ينتهي التقليد الى نتيجتين : الرجعية والخروج على المألوف من عرف الجماعة • اتخذت السنة قاعدة في التشبه بحياة الرسول الخاصة من مأكل وملبس وانماط الحياة الاخرى الانماط التي كان العرف عليها في مكة • وقامت محاولات من اجل البقاء على معالم الحضارة المعاصرة لعهد الرسالة كالبقاء على الهودج بدلا من السيارة او البقاء على القوس بدلا من الرشاش

تلك هي الرجعية بنفسها ، انها محاولة سكب الحياة المستجدة في قوالب بالية قد فات أوانها •

وأما الاسباب التي جعلت الرجعية ممقوتة عندنا الى الحد الذي بلغته فهي محالفتها مع الاستعمار • كانت فرنسا تحيل بعضا من موظفي الامن الى القيام بالمهام الدينية ، وكان هؤلاء يقومون ، تحت رداء الدين ، بكل ما من شأنه أن يعرقل على البلاد تطورها ويظهرها بمظهر التخلف في الاستعداد للحضارة ، وهاك مثالا عن ذلك •

في ذات يوم فوجئت دمشق بمظاهرة قام بها فريق من المشايخ يتبعهم بعض الرعاع وكان شعار المظاهرة : لا نريد لعبة اليويو ، لانها تسبب حبس الامطار ، فكأن الخرزة اذ تقفل راجعة تجعل قطرات المطر هي ايضا تتبخر قبل ان تصل الى سطح الارض ! تبعا لقانون المماثلة في العقلية السحرية ! ولما اتخذ بعض رجال الدين وحلفائهم رجال الاقطاع مطية للاستعمار ، اصبحت الرجعية والاقطاعية محل احتقار الناس •





البولتافا يعدو تحت الجسر ، أخضر اللون ، متورما بمياه الامطار ، وأكواخ البائسين تمتد على طول الشاطىء ، مثل قوارب مقلوبة ، أكلها الاهتراء ، وكللت حيزومها العفونة . وخلف امتدادها هذا ، ينتصب صفا من بيوت البلدية ذات ثلاثة طوابق ، تشرف على الارض الخلاء المنبسطة . ولما كانت اللوحة المكتوبة بالالمانية قد انتزعت منذ أمس ، فقد ظل في هذا المكان ، جسر دون اسم ، يعلو النهر . فهو غفل كأولئك الذين أقاموا في طرفيه وفي وسطه ثلاثة متاريس من حافلات كهربائية مقلوبة ومن صناديق الورشة المليئة بالمسامير، ومن كبار ملفات ورق الصحف ، حيث يموت الرصاص دون ضجيج ، ومن حجارة الصوان المنتزعة من حوافي الارصفة . وكانت الامطار قد غسلت زفت الطريق حتى جعلته لماعا .

زمجر الفتيان قائلين :

– الحجارة المزفتة قذارة ! واذا نجح الاوباش في تخريب عملنا ، فما ذلك الا لقذارة هذا الزفت !

– حماة مبنى البلدية ليس فيهم ذرة من الذكاء ، أتراهم فطنوا ان بامكانهم الافادة من حجارة قوية كحجارة الصوان !

كان الالمان في الجانب المقابل من الماء ، متسترين بظلال الخمائل الوارفة ، المنبسطة على التلال ، غارقين في خضرة الدارات ، ورشاشاتهم ، منذ عصر يوم السبت ، تمطر أقرب رأسي الجسر اليهم ، فيتأثر زجاج حافلة كهربائية مهملة ، وتتطاير الفوانيس فوق الجسر في ذرات كحبات العدس .

– لولا المتاريس لشويت جلودنا ! كان هذا بارزا للعيان ، منذ السبت وحتى قبل ان توجه الاذاعة نداءها . وعند انبثاق فجر يوم الاحد ، كانت ثلاثة متاريس قد تم بناؤها ، ومواكب طويلة من النسوة كن عائدات الى مطابخهن ، لاشعال النار لتهيئة وجبة الصباح وايديهن مسودة من آثار التراب وفرائصهن ترتعد من البرد والنعاس .

– من يدافع عن المتراس الاول ؟

– يفضل من أتموا خدمتهم العسكرية !

– هراء ! بل نبدأ بالذين لا يهابون شيئا !

وبقي هناك شخص أسمر اللون ، مجعدالشعر ، في حدود الثلاثين من عمره ورقيب وعشرة فتيان لايكادون يبلغون العشرين من العمر . ادعى الجميع كذبا انهم أدوا خدمتهم العسكرية . وهناك رشيشان انتزعا أمس من الالمان وخمس بنادق وصندوق من القنابل ذات القبضة الخشبية .

– اذا ما ساءت الحال نتراجع صوبكم ، وعليكم ان تحموا انسحابنا ، ولكن اياكم ان تطلقوا علينا النار !

– لا تخف أيها الخبيث ! – هذا ما قاله ساخرا سائق حافلة اعتصم هنا مع حافلته وقد أخذ الان على عاتقه مهمة الدفاع عن المتراس الاوسط ، بيد انه خشي ان تكون سخريته سببا في اغاظة الرقيب ، فأردف كمن يتدارك الامر :

– على كل حال فلن تصمدوا طويلا ، انهم يصلونكم النار وهم في مأمن ، فناوشوهم قليلا ثم حاولوا ان تنضموا الينا . فاذا ما جاء هؤلاء الاشاوس الى الجسر ، فلن يخطوا بما يسرهم . اما اذا سولت لهم النفس ان يقوموا بزيارتنا ، فعليهم ان ينكشفوا ويتقدموا في الطريق المزفتة !

عقب ذلك ، مضى العشرة يلوذون بحمى المتراس الامامي ، حيث كانت الرصاصات الالمانية المنطلقة من سفح الهضبة ، تنصب وتنفرز في أخشابه .

كانت الساعة السادسة من صباح الاحد حين قعد الفتيان لينالوا قسطا من الراحة بحمى المتراس الاوسط وهم : سائق الحافلة بقبعته الملقاة على مؤخر رأسه ، وراء اذنه ، والسيد بروشيك –مفتش الشرطة– وسبعة من العمال الشبان ، بعضهم من المشتغلين في مصنع الورق المجاور وبعضهم من البحارة ومن لحامي

المسالخ . بينهم فتى ، قوي البنية ، ضحوك في غير ثرثرة ، كان قد جاء بالرشيشين . وهم يتفحصونه في حذر وريبة . ألا يمكن ان يكون من الالمان في نهاية الامر ؟

كان يردد على مسامعهم في حنق :

نيدرلند ، نيدرلند ، هولندا ! واخيرا فهموا ما أراد . وكانوا قد تقاسموا فيما بينهم رغيفا من الخبز الاسود وارديتهم مبللة بالامطار وبنادقهم مخبأة بعناية تحت مماطرهم . وكان احدهم قد تحدى المطر المدرار فلف سيجارة من تبغ فاسد ، اخذت تنتقل من فم الى فم وكل منهم يبتلع بشراهة نفحة منها . وكانت ثلاث نسوة قد بقين مع الرجال وهن يجلسن القرفصاء وايديهن على حجورهن كالمتضرعات .

فصاح بهن فتى اسمر اللون ، نحيل :

ـ لو تعدن الى بيوتكن لكان ذلك خيرا من حجب المنظر عنا !

فانتهره ثلاثة فتية بصوت واحد :

ـ دعهن ينظرن ساكنات ، انهن زوجاتنا الشرعيات . فابتسم الاسمر الصغير وبصق في أمتعة المتراس وهو يردف بلهجة بالغة الكآبة :

ـ اني أتساءل ما عساك تصنع بسيدتك البورجوازية في مثل هذا السرير !

وكان فرانتا كروبا ، وهو ملتف في برنسه ، يراقب بصمت شاطىء البولتافا . انه يفكر في نهر ، يحمل غير هذا الاسم ، يفكر في نسوة برونزيات الوجه ، في نسوة ، شعرهن بلون الليل الفاحم ، في رفيقات كن يوصلن الذخيرة والطعام الى الخنادق على ضفاف المانزانارس .

والى جانب فرانتا ، كان ذلك الاشقر ، القوي البنية ، الملقب ، نيدرلند .

وفكر فرانتا وهو يتمثل مدينة مدريد المجيدة : اسبانيا ، اسبانيا ! . ان هذه الذكرى التي تحز في نفسه منذ ثماني سنوات لم تندمل بعد . وكانت أوسمة فرانتا ، ساق مشلولة وفجوة في صدره . وفوق ذلك ست سنوات في التخفي والتواري عن انظار السفاحين السمر الذين يتعقبونه . ومع هذا كله لم يظفروا به ، لم يظفروا بفرانتا ! وفي هذا الصباح ، حين اقبل ، هو المشوه ، الاعرج ، يتمدد كغيره وراء المتراس ، حياة مفتش الشرطة ، السيد بروشيك برفع أصابعه الى مقدمة عمرته :

ـ عجيب ! عجيب ! ها نحن نتلاقى ايها البوشفي العتيق ، أليس كذلك ؟

فراح فرانتا يضحك :

ـ ما اكثر ما كنت تتعقبني ، أليس صحيحا يا سيد بروشيك ؟

فاعترف السيد بروشيك قائلا :

ـ كما قلت ، ولكن حتى في هذا الوقت ايضا ، كنت تعدو كالارنب ! آه ، ما اكثر ما شهدنا بعض هذه المظاهرات !

وادخل فرانتا يده الى جيبه ليسحب منها قطعته المألوفة من الحواري ، ورسم منجلا ومطرقة على سقف الحافلة التي تشكل الآن جدارا خلفيا للمتراس .

ـ كان الناس فيما مضى يصفعون لمثل هذا العمل . أليس حقا ما أقول ؟

ـ لعمري ، انه حق ، بل يجلدون ايضا ـ وتنهد السيد بروشيك ـ ماذا تريد ! انها لمهازل !

وتبادل عقب السيجارة ، اولئك الاصدقاء الثلاثة : مفتش الشرطة وفرانتا البولشفي والفتى « نيدرلند ، نيدرلند »

. . .

عندما دقت الساعة التاسعة والنصف حدث ان فتاة في ثياب عمال الحافلات بلغت المتراس الاوسط وهي تركض منحنية .

ـ ايه ايها الصديق ! ان حماة مباني البلدية ، يبلغونكم ان الالمان يحتشدون في الحدائق ويهبطون في اتجاه النهر .

فحدق ببصره ليتفحص الضفة المقابلة ، وقرقعت رشيشات المتراس الامامي وهي تطلق نيرانها المتزنة تك تك تك تك . فالرفاق يعلمون اذا ما يترصدهم ... وكانت طلقات سوط . وعقب ذلك فجوات سكون عميق كأن هؤلاء وأولئك يقتنصون فرصة لاستعادة قواهم . شرق السيد بروشيك في كآبة وتلمس بندقيته وغمغم منذرا :

ـ يجب علينا ان نسرع .. حالا ... بدأت المعركة هناك .. وهم بالمضي صوب الممر الضيق في طرف المتراس ، فلحق به فرانتا وشده من ذراعه .

ـ يا سيد بروشيك ، تمهل ، سيأتي دورنا ايضا !

تجهم وجه المفتش وارقد الى الوراء كمن ثلمت

كرامته ، وأدخل قبضتيه في جيبي معطفه العسكري ، وراح يشكو متذمرا :

ـ منذ ست سنوات وانا أترقب هذه الفرصة ، وحين سنحت لا يتركون لك الحرية حتى في اطـلاق النـار !

أما سائق الحافلة الذي كان يتفحص الساحـة بمنظار خاص بالمسرح ، فقد قذف شتيمة ، وحين التفت الى الفتيان دهشوا اذ رأوه كدرا • قال بصوت محطم :

ـ الانذال ، جاؤوا بدبابتين !

كان الوحشان الفولاذيان يتقدمان نحو الجسر ، تحجبهما اطلال الضفة وهدير المحركات الاجش ، يعلو مع كل قفزة ، وانبوب المدافع كسبابة ممدودة ، مصوب اليهم ، على قاعدته الخشبية وقوائمه العشر الصغيرة •

ـ هذه المرة ، ايهـا الفتيـان ، ستكون الحفلة رائعة ! قال ذلك بمرارة • اما بالنسبةاليه ، فمنالواضح انها النهاية •

ـ تعلمون ايها الاصحاب ، قد يتوجب علينا ، ان نتراجع ، الا اذا قطعت علينا الطريق ولم يبق لنـا مجال ••••

وامتدت الايدي الفتيـة الى القنـابل استعدادا للطوارىء •

واحتج احدهم قائلا :

ـ دقيقة واحدة ، لا تعجلوا ! وسحب من جيبه حبلا قصيرا ليربط به عشر قنابل دفعة واحدة •

ـ ليس في مقـدورهم ان يكتشـفوني ، أليس صحيحا ؟ ما زلت في منجى من ابصارهم ؟

وزحف على بطنه الى الجهة الاخرى من المتراس ، وحمله مشدود تحت صدره • لقد ادرك كل منهم الى اين يمضي جاردا • كلا ، لم يتوصل الالمان الى اكتشافه بعد • وجر نفسه في وحلالطريق وبحركة شبيهة بحركة أفعى ، انساب بين اعشاب الساقية •• فهو لم يوجه اليهم حتى كلمة وداع • أما هم ، فقد شحبت وجوههم ، وأحسوا قشعريرة باردة تسري في اوصالهم • ولأول مرة في حياتهم دنا منهم الموت حقا • وهذا جاردا • انه هناك يتقدم الى الامام ، هذا التلميذ القديم الخامل في الصف الثاني ، الذي صار فيما بعد خراطا ، أتراه يشعر هو أيضا بما نشعر به من خوف ؟

انقضى كل شيء في خمس دقائق • لقد بصروا به ينتصب ملقيا بحمله بكل ما أوتي من قوة تحت مقدم الدبابة المرتفع • واذا الانفجار يهزهم واللهب تنـدلع وتلصق صدر الوحش وتشب ••• لقد كبلته في لحظة واحدة بمخالبها المتأججة •

فاستبدت بهم الغبطة وهتفوا :

ـ مرحى ! ••

وابصروا في الوقت نفسه جسد جاردا وقد علقت به خصل البابونج أثناء زحفه ، وهو يتدحرج في بطء صوب النهر • لقد كانوا وهم صغار يرخون أجسامهم ، هنا ، على هذا السفح ، فتتدحرج كالبراميل •

أما الدبابة الثانية فنكعت على اعقابها •

أجال الرقيب نظرة عاجلة بين فتيانه التسعة • وكانوا متجهمين ، مضطربين الا انهم سالمون ، لم يمسوا بأذى •

ـ هل بينكم منن يفكر بالانسحاب ايها الفتيان ؟

ظلوا صامتين لا ينبسون ببنت شفة ، كأنهـم مسمرون في مراكزهم • الا ان ابصارهم ظلت عالقـة بجسد جاردا ، هناك ، في الاسفل في قعر المنحدر ، على ضفة النهر ، حيث هسهسة المياه تلصق الحجارة • كان ملقى ووجهه الى الماء ، كأنه يروي ظمأه •

واقترب مـن المتراس المتوسط ، رسـول حتى أدركهم • وكان هذا الرسول صبية من عاملات الحافلات الكهربائية ، مكشوفة الرأس ، على نقرتها جدائل ثقيلة سوداء • أخرجت من جيبها حافظا (ترمس) قدمته الى الرقيب قائلة :

ـ هذا الشاي اشربوه لتتدفؤوا ، ايها الفتيـان أتحتاجون الى شيء آخر ؟

فجذبها الرقيب اليـه وحدق في وجهها بعينيه الجميلتين المتوقدتين :

ـ أما انا فأود قبلة من رسول السعادة !

لأول مرة فيهذه الصبيحة سادهم المرح ، وضحكوا ضحكا طفليا ، بريئا ، صادقا • واخذها كل فرد منهم بدوره بين ذراعيه ، يتلقون قبلاتها القصيرة الموزعة عليهم بانصاف كالقربان المقدس •

وفي القبلة العاشرة شرع الالمان باطلاق مدافعهم •

• • •

انهم يطلقون ويطلقون ويزيدون في اطلاقهم •

أخذت تتحطم قواعد الاسمنت المتطاولة ، التي تناثرت أمس فوانيسها في ذرات ناعمة • وراح الزفت يتطاير تحت وقع القنابل • وجعلت سقوف جحود المساكين على الجانب الاخر من الماء تتفجر برمتها • وكان عواء الذئاب البشرية يصم الآذان • وكان فرانتا كروبا

والصديق نيدرلند والمفتش السيد بروشيك والرفاق العشرة الآخرون كامنين في أسفل متراسهم • ان الوقت لا يسمح بتبادل الاحاديث •

هم يتحسسون زناد بنادقهم ويعلمون انهم لا يستطيعون دفع هذا الجحيم المنصب عليهم من السماء • اما عامل الحافلات ، ذو المنظار المسرحي ، الذي تغبش زجاجه من جراء المطر وحرارة أنفاسه ، فلم تبارح انظاره المتراس الاول •

— انهم يركزون صب النار عليه !

وساورته شهوة البكاء اشفاقا • فهناك امامه ، على بعد مئة متر عنه ، بقايا من الخشب تتواثب في الهواء • والاسمنت المسلح في الجسر يتفتت تحت انهمار القنابل واذا بدخان يتعالى ، انه دخان التضحية النبيلة بلونه الابيض المائل الى الرماد •

المتراس الخشبي تتأكله النيران •

— الى الوراء أيها الفتيان ! تراجعوا !

هذا ما زمجر به احدهم ، خلال السكون الفاصل بين الانفجارات • والصبية ، فلا سيتشكا انها هنالك ايضا • كم من مرة ، أسف لرؤيتها اثناء العمل محكومة بالبقاء في دوامة الحافلة السوداء • وتراءت له خصل شعرها البراقة السوداء التي تغريك بالحاح ان تلمسها بكفك •

— تراجعوا !

ولكن ما من سميع ولا من مجيب •

ظلت الاخشاب تلتهب مدة ساعتين تحت وابل من القنابل المتواصلة • ثم تحول كل شيء الى رماد •

لقد اصبح مدخل الجسر مفتوحا •

وكان الحريق يجعل الليل وراء ظهورهم شديد الضياء •

لقد اندلعت النار في مستودع وفي بيوت للسكن • كل شيء في المدينة يشوى • الامكنة القريبة والامكنة البعيدة • الظلمات مفعمة بألسنة اللهب القرمزية •

كان فرانتا ونيدرلند والسيد بروشيك وعامل الحافلات وعمال المسالخ وغيرهم بين واقف او راكع او متمدد ، وكل منهم متأهب لاطلاق النار • لقد تبدل سير المعركة : فنحن الآن في الخط الاول •

غير ان الليل الجاثم امامهم ، الظلام المخيم على امتداد ابصارهم ، لا يجعل احدا في متناول اسلحتهم ، ترى ، أعاد الوحش الكاسر الى جحره ؟ أأصيب بالكساح ام الانفزار ؟ أم هو يهاب الليل الذي تجرع تحت ستاره كثيرا من الدماء ؟

البولتافا يخبط قواعد الجسر • ما أشد اختلافه عن نهر مانزانارس المجيد ! ولكن كل شيء متشابه ، كما تتشابه مدريد وبراغ • فمنذ حين ، لما عاد فرانتا الى البلاد ، في أيار ١٩٣٨ وهو يعرج من ساقه التي اخترقتها شظية ، كان كل شيء رائعا ، صافيا • ومنذ ذلك الحين ، توجب علينا ان نحدد يوما لاظهار تضامننا معهم • فان فرانكو وزبانيته المغاربة ، وهتلر وعصابته من افراد الصاعقة : ان هؤلاء جميعا وحوش قذرة ، خرجت من جحر الافاعي نفسه •

وان دولوريس وكونسو لاشيونه ومانويلا ، كلها أسماء نسوة حبيبات ، اغتصبهن جهاز الجندية الافريقي وان اجسام اطفال بضة ، لطيفة كانت قد مزقتها أجهزة الارهاب ، وان سكونا رائعا • يغمر بيوتا بيضاء ، كانت قد عكرته عاصفة القنابل • وبدلا من النواقيس والمزامير حلت الرشاشات الآثمة •

كان الفتى نيدرلند كأنه يهوم • فهو يتأرجح على قدميه ويداه على رشيشه • ترى ، هل يفكر هو في بلاده ؟

ان فرانتا كروبا يفكر معه ومن اجله ، كأنما هو يتصفح كتاب صور للاطفال ، تتراءى فيه طواحين هواء وبقرات حلوب بأثداء وازنة وقوارب عائمة على أقنية وادعة وزنابق فواحة ، تلك هي هولندا في نظر فرانتا • واذا بمياه جياشة ، سمراء ، عكرة تغزو فجأة الحقول الزاهرة ، انها مياه بحرية مسمومة بالاملاح ، تدفع لجتها فتكتسح الارض كلها • هذا ما تبجح به النازيون في أفلامهم السينمائية ، التي عرضت في نشراتهم المصورة • لقد دمروا على هذه الصورة وطن الصديق •

أتراهم رحموا أحدا ؟ أتركوا أحدا في سلام ؟

بعد منتصف الليل ، هرع ملازم الى المتراس • وكان قد استبدل عمرته العسكرية برباط ابيض ، مبقع بالدم المنزف من جرح في جبهته وبيده مسدس ثقيل • كان خائر القوى ، شديد اللهاث • قال بصعوبة ، كأن كل كلمة ، يتفوه بها ، تتخطى حاجز أسنانه وهي مهشمة :

— ايها الفتيان ... نحن مكرهون على اخلاء ... هذا المتراس •

فصاحوا غاضبين :

— انه لا يقوى على الوقوف على قدميه !

أليس هوعدوا متنكرا ؟ جبانا ؟ متخاذلا ؟ وقذفوه بسيل من الشتائم القبيحة ، جعلت تصنف وتتعالى ما

تعالى اليأس والغضب ٠

أما هو فقد اكتفى بأن رسم بيده اشارة متعبة ٠ ان الالمان يعبرون النهر في قوارب ٠ وساحة المعركة انتقلت الان الى الضفة ، هنالك ، تحت ، في الظلام ، بين المخازن والشاحنات والقوارب المقلوبة ٠ فعند اول الجسر ، متراس آخر ، قبل هذا ، تحميه اجهزة دفاع جانبية ٠ ان ذلك المتراس سندافع عنه ونحافظ عليه ٠ أما خلف الضفة فالارض خاوية ، خاوية على امتداد النظر ٠ فاذا ضاعت الضفة من ايدينا ، اذا تركنا لهم مجالا للنزول من القوارب ، ضاع كل شيء ٠ كان يتكلم كمن افلت منه زمام امره ٠

وأزت طقطقات على سطح الماء ٠ لعلهم لا يزالون في الوسط ، ويحتمل ايضا ان يكونوا قد قاربوا الضفة ٠ وفي هذه الحال ٠٠٠

ـ باسم الثورة ، بقيادتي !

ونهضوا في رخاوة الواحد تلو الاخر ٠ ان هذا المتراس ، متراسهم !٠٠٠ ودون ايما طلقة نارية !٠٠٠ اعتراهم دوار من الخجل ٠ مع ذلك فهو مصيب ، هذا الملازم ، ان قوله حق من الوجهة العسكرية ٠ اذ لا مناص من وجود بنادق على الضفة ٠ الضفة بحاجة الى من يطلق النار ، واذا ما سقطت فالالمان يهاجمون المتراس من الخلف ٠ فنهض الجميع واقفين ٠ الا ان ثلاثة منهم عاندوا وظلوا متشبثين بمراكزهم ٠

منهم الصديق نيدرلند ٠ فعساه شارد الذهن ، في وطنه ، فوق قناة ، في ظل طواحين الهواء المثقوبة بالرصاص ، على حافة مربع من الزنابق ، على بعد خطوتين من أرضه التي اتلفها البحر ٠

وهنالك فرانتا كروبا ، لأنه هو يقوم بحراسة نهرين : البولتافا ومانزنارس ٠ انه هو يعرف الصيحة السريعة المنطلقة في وجه المغاربة وهم يشنون الهجوم ٠ وثالثهم هو السيد بروشيك ٠ لان الجندي القديم ، وحق السماء ! قد وطن العزم نهائيا عن اطلاق النار ، ولو مرة واحدة على الاقل !

صاحوا بنيدرلند ودلوه على طريق الانسحاب ٠ فالتفت اليهم وأشار بالرفض ٠ وقهقه ضاحكا كتلميذ صمم على اقتراف عمل محرم ٠ وصاحوا بفرانتا فأجاب :

ـ ايها الرفيق الملازم ، سأبقى هنا ٠ اني ارى بقائي ضروريا ٠٠٠

ـ انت تعرض نفسك للهلاك دون مبرر ٠

ـ لا بأس ٠

فأبعد الملازم اولا سائر الفتيان ، فمضوا آسفين ٠ ففي البيوت الصغيرة القائمة على الضفة هنالك ، في الاقبية المحولة الى ملاجيء ، ترقد زوجاتهم ، تحت الاغطية ذات الخطوط ٠

فهنالك يأوى اولادهم وهم على بعد خطوتين من الماء ، لا اكثر ٠٠٠ ثم دنا الملازم من فرانتا ومد له يده :

ـ انا اعلم انه ينبغي ان يظل هنا البعض منا ، ولكن ٠٠٠

ـ ليس ثمة « ولكن » ابذل جهدك فقط في الحفاظ على الضفة ٠٠٠ والسلام !

ـ السلام للعلم ، قال الملازم في ذات نفسه وهو ينصرف ، لانه من رجال الجيش ٠

وتظاهر السيد بروشيك بالنوم ، فانه لا يرى فائدة من التحدث مع رجل ازرق ٠ وما ان خلا الجو للثلاثة معا ، حتى تمخط في صخب وتمطى ٠ وبعد ان اشبع هكذا حاجات جسده كلها ، غمز فرانتا غمزة متآمر :

ـ لو كان ينبغي ان ننصاع لاوامرهم ، لما تمكنا حتى من اطلاق النار كما نشتهي !

٠ ٠ ٠

دقت الساعة في قبة الجرس الثالثة صباحا ٠

وكان الفتيان الذين مضوا لحماية الضفة يشتبكون الآن في القتال ٠ ففي كلا الجهتين ، العليا والسفلى من النهر سبحات من طلقات الرشاشات ٠ وكان السكون مخيما على المتراس ٠

المتراس الاخرس ، المتراس الميت ٠

ان فيه ثلاثة انباض ، ثلاثة انفاس ثلاثة ازواج من العيون ٠٠ وأيديهم ثابتة ، دونما حراك ٠ ظلوا منبطحين كما تمددوا ، وقد اكتسب فولاذ الرشيشات ، منذ زمن طويل ، حرارة أكفهم ٠ انهم يحملقون في الدياجير المخيمة على الجسر ٠ هل يأتون ؟ هل يأتون ؟

وفي هذا الجو الجامد ، الثقيل ، يتوارى الظلام شيئا فشيئا ، ويتسلل الضياء ، وتنساب مع الماء قوافل الضباب ، وبين قافلة واخرى ، تلوح قوارب الالمان ، في مدى لحظة ، مثل سمكات ضخمة من السلور ، انها اهداف عابرة ، غامضة المعالم ٠

وفي هذه البرهة ، ارتفعت يد فرانتا خفيفة ، سريعة ، كما لو كانت تهم بالقبض على فراشة ، واومأت الى الصديق نيدرلند وكان قد سارع بتصويب رشيشه الى النهر ٠ ليس هذا هدفنا ٠ وغرز فرانتا سبته في

الهواء امامه بخط مستقيم . « جماعتنا » يجب ان يقبلوا من هنا .

واوقف نيدرلند تحريك سلاحه باسما . واستجاب بحركة من ذقنه . وتثائب السيد بروشيك بنشاط : لقد غشيه ما في الفجر من فتور .

وما ان مزق النهار فحمة الليل تمزيقا كاملا ، في هذا الصباح الباكي بأمطاره حتى وضع حدا لانتظارهم . فالسكون كان قد خدع الالمان . فتراءى عدد من القناصين المظليين على اطراف المتراس المحروق في اقصى الجسر ، كالمردة المتخفين تحت أغشيتهم السمراء والخضراء المخرمة . انهم يزحفون على الجسر واحدا ، واحدا ورشيشهم جاهز للاطلاق ، متفيئين بحوافي الرصيف لحماية أنفسهم . ها هم ، مقبلون ، خمسة ، عشرة . وبعد فترة قصيرة ، بدوا مثل عدل ، يتلاشى قعره فجأة : وفي دفعة واحدة أصبحوا على الجسر اربعين ، بل خمسين . انهم يتقدمون من المتراس الميت . اجتاز احدهم الطريق عدوا ، تلك هي وسيلة جس النبض ، وكان السكون المخيم يغريهم بزيادة التقدم ، وهم يتفحصون الضفة المقابلة من خلال درابزين الجسر .

وانسابت قدم فرانتا في بطء شديد نحو السيد بروشيك ، ومست في خفة فخذ مفتش الشرطة . وما كاد بروشيك يرفع رأسه حتى وضع الآخر بسرعة اصبعه على شفتيه محذرا . وضحك نيدرلند ضحكة مكتومة بين أسنانه . وأدرك السيد بروشيك ما يراد منه . ومن خلال شق سدد نظرة الى الالمان ، ويداه ترتجفان في عصبية . الا ان فرانتا جدد ايماءته : كلا ، كلا ، كلا ! ان الفرصة المرتقبة لم تحن بعد .

وكاد فرانتا ينشد لفرط سعادته . بحث في جيبه عن قطعة الحوارى ، في هذا الوقت الذي اخذ يفكر فيه بخندق ، خندق مهجور منذ أمد بعيد ، بالتضامن مع رفاق قضوا الى الابد ، ببلد قائم على الطرف الآخر من اوروبا ، مرة اخرى ، مرة اخرى قبل ان ... وانبعث حوله قتلى ذلك العهد ، لم يعد لهم تلك الجباه المثقوبة بالرصاص ، لم تعد اعضاؤهم مقتلعة ، بل هم مشرقون ، ينبضون حياة كما كانوا من قبل .

امتد يد فرانتا الى سقف الحافلة الملقاة على جانبها ، الى ذلك السقف القاتم وبقرب المطرقة والمنجل ، وفي خطوط ثابتة ، هادئة ، رسمت حرفا ، حرفا :

لن ي

وفغر الصديق نيدرلند فاه ، ليطلق بسمة ، أكثر انشراحا من كل ما جاد به منذ ابتداء هذين اليومين . وقبل ان يشرع فرانتا بكتابة الحرف الرابع ، كانت اليد الاجنبية ، تبغي الكتابة هي ايضا . فجست أصابع الصديق في رفق واستخلصت بحركة دائرية قطعة الحوارى . ان من المهم ان تقول البلاد المنخفضة كلمتها ايضا وبلغتها :

لن يمروا !

وأتم العبارة الاولى بحروف عريضة ظاهرة :

لن يمروا !

التمعت عينا السيد بروشيك المثنيتان تحت عمرة المفتش التي يعتمر بها . وقرأ فرانتا بهما ما رمى اليه . أجل ، أجل ، هذا ما كان يكتب ايضا في اكثر الاحيان ! ما اكثر ما كان يكتب هذا على الجدران والعمد ، وما أكثر ما وزعت الكلمات والصفعات لهذا السبب !

كان المهرجون قد اصبحوا على بعد ثلاثين خطوة ، ولم يعد المتراس الاخرس مصدر خوف . فقد وثقوا الآن ان التشيكيين قد نزحوا عنه وتراجعوا . وانتقلت من الواحد الى الاخر عدوى استهتار مثير . فقد امحت من قسماتهم علائم الحذر والتيقظ ، وراح فرانتا يحصي بسماتهم . فهم يمشون الى المتراس بطلاقة والسلاح في أحزمتهم ، والقنابل اليدوية في جزماتهم القصيرة .

خطوة خطوة .

جفت عينا السيد بروشيك ، لطول الانتظار وفروغ الصبر . واصبحت عينا نيدرلند قاسيتين ، صلبتين كنصل خنجر مسنون ، وبغمزة واحدة من عيني فرانتا اعطيت الاشارة .

في سبيل براغ ! في سبيل هولندا ! في سبيل اسبانيا ! النار ايها الرفاق !

تك تك تك تك تك تك تك ...

وفي اقل من دقيقتين حصد الموت هذا الجمع كله .



موضع الكتاب من حياتنا الثقافية

بقلم : سليم بركات

لو شاء كاتب من الكتاب أن يختصر مقياسا شاملا يقاس به التقدم الانساني في أرقى حدود حضارات الامم وتاريخ الشعوب لتراءت له في البداية على الارجح صور كثيرة لمبادىء هذا المقياس ، حيث يتجه ببصره نحو سعة العمران وانتشاره مرة ، ونحو قوة الجيوش وعظمة الفتوح مرة أخرى ، وقد يتجه الى ضخامة المصانع وغزارة الانتاج او الى غير ذلك من مظاهر القوة المادية والثراء ، لكنه لن يلبث أن يرى خلف التقدم الانساني منذ أقدم العصور كائنا هادئا يبصره الناس في كثير من اللامبالاة في غالب الاحيان ودون أن ينتبهوا الى ما يمثله في وجود أفرادهم ووجود نوعهم من معان كائنا كان بلوغ الانسان حد اختراعه واتخاذه أداة كبرى لحياته ـ نقطة التحول التاريخية الكبرى في وجود النوع البشري هذا الكائن : هو الكتاب .

ان المركز الذي يشغله الكتاب في حياة أمة من الامم ، ونوع الوظيفة التي يؤديها في وجودها الفكري والمادي يحددان حظ هذه الامة من قدرة والبقاء وطاقة التقدم والاستفادة المنظمة الكاملة من كل قواها الانسانية بل ومن ثرواتها المادية حتى انه لو اراد الانسان ان يرمز الى أفضل ما في الانسانية من عقل وعاطفة وقوة والى اسمى ما ينطوي عليه معناها من جهاد ونصر وأمل لما استطاع أن يرمز الى ذلك كله الا في صورة كتاب .

يقول الكاتب الفرنسي جورج دوهامل في كتابه الشهير (دفاع عن الادب) « ان المكتبة هي ذلك المكان الجليل الذي يحتفظ فيه الرجال بتاريخ تجاربهم واحساساتهم واكتشافاتهم ومشروعاتهم ولو فقدنا دفعة واحدة كل تلك الكتب التي ازدهرت في ظلالها حضارتنا المرهفة المعقدة لوجدنا مشقة كبيرة في تنفيذ كل ما يتصل بحياتنا المادية بل ولوجدنا مشقة كبرى في استخدام ملكاتنا والرجوع الى قواعد أخلاقنا والتغلب على شهوات نفوسنا ، اذ لن تكون تصرفاتنا عندئذ الا تصرفات قوم متوحشين او وحوش تعسة » .

والسر في انطواء الكتاب على هذا الحد من الاهمية في حياة البشر يرجع الى طبيعة المعرفة وتكونها عند الانسان والى الطريقة التي سارت بها العملية العقلية لديه منذ بداية ظهوره على هذا الكوكب حيث ظهر ان هذه العملية لا يمكن ان تكون عملية افراد بل ولا عملية جماعات من الافراد وانما هي عملية تاريخية كبرى شديدة العنف وشديدة البطء وقوام التقدم فيها تمثل كل جهد مضى في كل جهد يأتي ، وحلول كل عقل عمل في كل عقل يعمل او يتجه الى العمل ، وانه بدون ذلك لا تكون مجهودات الأجيال المتعاقبة الا نكسات متعاقبة وتسكعا أبدا في محيط الظلام والهمجية . وكانت عملية التفكير والبحث العلمي في كل لحظة من لحظات الزمان وفي كل بقعة من بقاع المكان عملية يقوم بها عقل انساني أعلى ليست عقول ملايين الملايين من المفكرين والباحثين في شتى العصور والاوطان سوى حالات من شعوره أو لمحات من وعيه ووجدانه ـ كانت هذه الاداة هي الكتاب .

أريد بعد هذا ان نتجه نحو مجتمعنا العربي لنرى موقع الكتاب من حياته الروحية ومن كل العمليات التي تهدف بها القوى القائدة المختلفة الى معالجة مشكلات المجتمع أو تحقيق الثورة الفكرية والاجتماعية أو بناء المجتمع الجديد أو ما شئت من هذه التعبيرات

الكثيرة التي تدل كلها على شيء واحد في جوهره هو ايجاد المجتمع العربي الذي يتصف بصفات القوة المادية والمعنوية ويكون من حيث كونه مجتمعا ، كيانا متماسكا بريئا من نقاط الضعف والتناقض التي تجعله يعجز عن الانطلاق الكلي المنتظم نحو اهدافه الشاملة •

وقبل الاجابة على السؤال الذي يتراءى فيما سبق يجدر بنا ان نشير الى حقيقة اجتماعية هامة جدا تثبتها كل تجارب التاريخ القديم والحديث وتثبت معها ان كل المجهودات الاجتماعية التي قامت على اساس تجاهلها باءت بالفشل الذريع وعادت في كثير من الحالات على مجتمعاتها بالنكسات المريعة والتردي في الازمات الضميرية الخطيرة • هذه هي الحقيقة هي ان عملية الاصلاح الاجتماعي او اعادة تكوين المجتمعات واصلاح الدول كانت في انطلاقتها التاريخية الناجحة تبدو باستمرار عملية اجتماعية بأوسع مفاهيم هذه الكلمة أي أنها لم تصور نماذجها الايجابية الناجحة الا عندما كانت تأتي كحركة تاريخية تشتمل على الضمير الاجتماعي كله وتشتق قوتها من تحول تشترك في مجهوده كل العناصر الاجتماعية الرئيسية في الكيان الوطني وذلك بارتفاع حركة البناء او الاصلاح الاجتماعي عن المستوى الذي تكون فيه قرارات ورغبات ومناهج يدور أمر رسمها والسعي لها وتنفيذها في محيط فرد حاكم او مجموعة من الحاكمين لتصبح في الوقت نفسه وقبل ذلك كله حركة ثقافية تتناول القيم والمفاهيم واسس النظر الموجودة في عقلية الامة نحو الموضوعات الكبرى التي تحدد نظرتها اليها وطريقة وعيها لها - نوع سلوكها وتفاعلها مع ذاتها ومع الطبيعة والحياة •

نرى انفسنا هنا نلتقي مرة اخرى بالكتاب لاننا اذا شئنا اصلاح حياة مجتمعنا او اصلاح اي جانب من جوانب هذه الحياة فاننا - كما سلف القول - نجد أنفسنا مدفوعين بقوة الحقيقة نفسها الى ان نبحث الاصول البعيدة لهذا الاصلاح ومصدر الطاقة التي تساعد على انطلاقه في كيان المجتمع وتقبل المجتمع له وتساعد على تحقيقه ووصوله الى اهدافه وسنرى عندئذ ان هذه الاصول تتمثل قبل كل شيء في الاستعداد العقلي الراهن لدى ابناء المجتمع والثقافة التي لديهم حول ما نعتقد بوجوده من المشكلات وما نعتقد بصلاحه وجدواه من حلول هذه المشكلات •

واذا قلنا عقلية المجتمع واذا ذكرنا ثقافة المجتمع كنا في الوقت نفسه نفترض ان لهذه العقلية مصدر غذاء ونماء • ونفترض لهذه الثقافة مقومات وعناصر وان نوع المصدر الذي يرد منه الغذاء • ومستوى المنبع الذي يعطي للثقافة مقوماتها وعناصرها هما في الوقت ذاته نوع ومستوى لما يصلح للمجتمع ويناسبه ولما هو خليق به من سبل التقدم ، ولما هو جدير به من مهاوي التأخر والانحلال •

فأما اذا كانت الظنون والتخمينات واما اذا كانت الانفعالات البدائية والاستجبات العضوية هي المقوم الاساسي لمفاهيم المجتمع فمن الطبيعي جدا ان يكون مجال مستقبله وطريق الجديد في حياته محددين بحدود الظن والتسكع والمحاولات العشوائية • أما السير البصير بهدفه والانطلاق المميز لمقصده والتطور الذي يحشد كل منابع الطاقة ويوحدها جميعا في طاقة متناسقة واحدة تتجه الى صميم المشكلات ولا تتجه الا الى صميم المشكلات فان ذلك كله لا يأتي الا عن حياة عقلية ايجابية تبنيها الثقافة الصحيحة والمعرفة العلمية أي يكون الكتاب الرصين فيها أبرز مظاهر الحياة الروحية للمجتمع وأول مقوماتها •

فاذا صدقنا النظرة الى موضع الكتاب في حياتنا الروحية فاننا نلاحظ ان الكتاب قد اخذ يشغل موضعا متزايد الاهمية في كافة أوجه النشاط من حياتنا العامة • لكنه ما يزال في بداية الطريق ، ما يزال تفاعله مع حياة المجتمع قاصرا محدودا بنحو لا يجوز استمراره في هذا الطور الدقيق من تاريخ الامة العربية • فالمؤلفات العربية التي تصدرها المطابع وتبيعها المكتبات كثيرة متزايدة لكن القسم الاكبر مما يطبع ويباع يقع محتواه

في واد وتقع حاجة الضمير العربي المعاصر في واد آخر فالمؤلفات التي من شأنها أن تنير آفاق المستقبل القومي والانساني أمام المواطن العربي وتزوده بالتحليل الدقيق لمكونات حاضره واحتمالات مستقبله وتوفر له المادة الثقافية التي تحقق له حياة فكرية منتجة - كلها ما تزال قليلة أشد القلة . والكثيرون من رجال العلم والفكر رغم ازدحام المفاهيم والصور في أذهانهم عن الانسانية والمجتمع وحول الواقع والاهداف تراهم اذا انطلقوا للكتابة أو الى الترجمة يؤثرون الموضوعات الهينة الساكنة المشتقة من محيط المتعة والرياضة الذهنية اكثر من اشتقاقها من محيط العالم والحياة . وحتى هذا القليل الذي لا يمكن نكران ما يتصف به بعضه من قوة وعمق يعوز بعضه الآخر ان يكون جادا ناضج الفكرة مستعصيا للوقائع . وهذا اذا لم يذكر الانسان نوع الكتب الاخرى التي لها حظ وافر من الانتشار ولا تنمي لدى قارئيها الا روح الاستخفاف بكل شيء ولا تجدي عليهم سوى فقدان الحاسة الفكرية الناقدة وخلق القوة وتقديس المثل العليا .

هذا فيما يتعلق بالكتاب العربي المعاصر نفسه لكن هناك ملاحظة اخرى تتعلق بقراء هذا الكتاب فالواقع ان كل مشارك في عمل التعليم او مراقب لوضع الكتاب العربي يلاحظ بكل وضوح شدة ضعف الرابطة الوجدانية الحرة بين غالبية المواطنين وبين الكتاب فهناك كثيرون جدا بين المثقفين بل بين خاصة المثقفين والذين يحترفون الثقافة والتثقيف لا تسعفهم الذاكرة بمعرفة العهد الذي تصفحوا فيه آخر كتاب . وهناك كثيرون من بين هؤلاء لا يضم منزله زاوية تأوي اليها الكتب . ويكفي أن نذكر ان اهم الكتب واوسعها انتشارا يظل غالبا سنين كثيرة لا تعاد طبعته ولا تدل كميات المنشور منه على وجود ظاهرة المطالعة لدى المواطنين بمستوى عال وان المكتبات الثقافية قليلة لا يوجد منها في المدن الكبرى سوى آحاد تعد على أصابع اليد ومعظمها لا يقوم أوده بالاعتماد على بيع الكتب العلمية وحدها فترى أن أصحاب هذه المكتبات غالبا يضطرون الى تخصيص زاوية للروايات الماجنة وكتب الزجل والميجانا وبعضهم يدعم كتبه بعصير الجزر والبرتقال . أو بالنقانق والبسطرمة لان الكتب وحدها لا تكفي لانشاء مؤسسة مكتفية بذاتها .

ولا أحب أن أمضي عن هذه النقطة دون أن اشير الى الارتباط الوثيق بينها وبين الملاحظة السابقة حول ضعف حركة التأليف العربي وخاصة في الجاد من الموضوعات والرصيد من اساليب البحث والمعالجة .

فالكتاب في العصر الحديث سلعة اقتصادية تخضع لقانون العرض والطلب وان الفشل الاليم الذي تلقاه الكتب الرصينة الجادة والخسائر التي يمنى بها من يطبعها أو يؤلفها هي السبب الرئيسي لاحجام العلماء عن التأليف وقعود الناشرين عن اذاعة كتب العلماء الا ماكان منه مقررا في امتحان أو مطلوبا في معهد أو جامعة .

من الملاحظتين السابقتين نواجه موقفا ثقافيا يجدر بكل من يمل لمسلطة مواجهة القضايا العامة أو يهتم بها بنحو ما من الاهتمام - أن يفكر فيها ما وسعه التفكير ويعمل لها قدر العمل ويتلخص هذا الموقف في النقاط الثلاث الآتية :

أولا - ان في مقدمة ما يشغل وجدان مجتمعنا الحاضر موضوع الاهداف والقيم وقد ذكرت ان المجهود الروحي لاكبر نسبة من المواطنين أمر أساسي جدا لوعي الاهداف وادراك الوسائل ولامكان ايجاد مفاهيم القيم التي يستطيع المواطن اكتشافها من وعي واقعه وتحليل حاضره واستخلاص مدلولات ثقافته ومعرفته . وانه لخطر ما بعده خطر ان يواجه أفراد لا يقرأون الكتب القيمة ولا يشتقون معرفتهم الا من الظنون والاوهام مشكلة الوسائل والغايات لمجتمعهم وللانسانية ثم يتحصل من ظنون كتلهم البشرية رأي عام يريد ان يرمي ثقله في الميزان القومي .

ثانيا - ان الديمقراطية التي ننشد مثالها الصحيح تستدعي الى الذهن دائما مصطلح الرأي العام . وحتى

الوشم !!

قصة بقلم : بهية سكر

سحبت سعدى شريط المكواة من مكان اتصاله بالجدار ، ومدت يدها ، باعياء ، تمسح قطرات كبيرة من العرق كانت تنزلق بتمهل على جبينها وتحت اذنيها . وضعت القميص على المنضدة وشرعت في قفل ازراره تمهيدا لطيه . تأملته بامعان : انه اخر قطعة تكويها اليوم ، وربما كان آخر قطعة تكويها في هذا البيت ..

انها لا تدري بالضبط متى تغادره ، لكنها تعرف ان ساعاتها فيه غدت معدودة ، وانها ستتركه الى الابد بعد ان سلخت بين جدرانه عشر سنوات من عمرها وكانت خلال تلك السنوات طفلة البيت المدللة وسيدته المسؤولة .. في وقت واحد .

وقلبت سعدى القميص على قفاه وتعمقت في خواطرها : حين جاءت اليه كانت طفلة ساذجة لا تعرف شيئا عن حياة المدن . كانت ترتدي ثوبها الطويل المهلهل . وكانت العصبة الممزقة تكاد تخفي شعرها الاشعث ..

أما الآن فان ضفيرتيها الطويلتين لم يعد لهما اثر . ولقد اصبح شعرها قصيرا ، كثوبها ، لا فرق بينها وبين بنات المدن . وها هي ذي صبية حلوة تدير كل رأس وعين . لا ينقصها شيء . انها تحفظ اغاني الحب وتجيد انواع الرقص العصرية . وتكاد لا تصدق انها ستترك كل ذلك وراءها .

وانتهت سعدى من طي القميص ، فتناولت المكواة من جديد ، وراحت تمررها فوقه بخفة وهي تتساءل بعفوية : هل حقا هي راضية بمغادرة هذا البيت ؟ وهل حقا تنتظرها السعادة خارج حدود جدرانه ؟

وجدت نفسها حائرة . لا تدري موقفها تماما . انها تحلم ببيت تكون هي سيدته ، وزوج تترقب وصوله وقت الغداء كما تفعل سيدتها هنا ، وطفل يؤرقها في الليل ويرهقها في النهار . انها تود ان يتحقق ذلك كله ، ولكنها تتساءل بأي ثمن سيصبح هذا الامر حقيقة؟

يوجد شيء واحد اسمه الرأي العام على مستوى ناضج يكفل له الاستمرار النسبي وثبات الاتجاه وتمييز الغايات الواقعية ، يجب أن يتوفر قدر صالح من الثقافة الموضوعية المناسبة لدى الجماهير ولدى قادة الرأي العام أنفسهم فهذه الثقافة تعني المنطق وتعني العناصر الثابتة للمواقف والقضايا وهذا هو الشرط الوحيد لقيام اسس التفكير المشترك لدى غالبية أفراد المجتمع .

ثالثا - ان من أول حاجات الامة الساعية للنهوض وحدة كيانها القومي وهذه الوحدة لا يتهددها شيء مثل طغيان روح التفكير الانفعالي ومعالجة القضايا بنزعة الهوى والتأثر بالظواهر والانسياق مع أصحاب الدعايات

كما أنه لا يؤصل هذه الوحدة ويديمها مثل تأكد روح التفكير العلمي الموضوعي بين المواطنين فالموضوعية تعني دائما القدر المشترك المستقل الذي يمكن أن يكون نقطة التلاقي بين المدارك والعقول .

هذه الامور الثلاثة لا يمكن تحقيق شيء ذي خطر من اعداد المجتمع في مجالها الا عن طريق توجيه المواطنين شيئا فشيئا نحو معايشة الكتاب وتحوله الى ان يكون المنبع الرئيسي للتفكير والحكم لدى جمهرة أبناء الشعب حول كل ما يتصل بأي موقف من مواقف الحياة الفردية أو الحياة العامة فان من المقطوع به انه اذا لم يكن الكتاب وراء تفكير الانسان ومحاكماته للامور لم يكن وراء ذلك الا ضباب الظنون وزحمة الاهواء .

وابعدت سعدى المكواة بعد ان انتهت من كي القميص ، وتناولته بعناية ، وحاولت مده على ساعدها كما يفعل صبي الكوى ، فاصطدمت عيناها بآثار الوشم الازرق القديم ينهش يدها البضة كحشرة متوحشة ، واعادها ذلك الى واقعها الذي لا مفر من مواجهته بلا تردد : سوف تذهب الى القرية لتتزوج من جاسم بن عمها • وسيكون شأنها كشأن اية قروية اخرى ••

وخيل اليها ان ثمة زغاريد تصدح من بعيد •• وأيادي تلوح لها •• وهي مقبلة على القرية كغنمة تلتقي بباقي أفراد القطيع بعد ضياع طويل •• فتهاوت أحلامها القديمة الواحد تلو الاخر ، وأحست بحنو بالغ نحو سيدتها ، ووجدت نفسها مسوقة لتناسي مواقف عديدة اساءت لها فيها !

وحين استدارت لتخرج من الغرفة بعد ان وضعت القميص على المقعد ، قابلها جهاز التلفزيون يرتاح في عظمة في صدر المكان • فوقفت تتأمله يائسة • وقفزت الى ذهنها صور شتى : الراديو •• السينما •• النزهات •• الزوار الالبسة الحديثة •• واشياء اخرى كثيرة ستحرم منها طويلا في القرية •• عندما تعود اليها لارتداء الثوب الطويل ، والتجوال تحت الشمس المحرقة ، والنوم والصحو مع الغنم !

لا ، لن تذهب • لن ترافق أباها الى القرية لتتزوج هناك • ستبقى مع سيدتها ، مع أحلامها الجميلة في المدينة ، قريبة من الاشياء التي اعتادت عليها ولا تستطيع البقاء بدونها ••

• • •

ـ سأعود قريبا • سأهرب متى أتيحت لي الفرصة •

واختلطت دموع سعدى مع دموع سيدتها ، ومضت بانكسار مع أبيها تجر الثوب المزهر الطويل الذي أحضره لها من القرية • وكانت تحاول جاهدة تثبيت العصبة على رأسها : كم تمقت هذا الثوب وتلك العصبة ••

• • •

وحين وطأت قدما سعدى أرض القرية ، كانت أصوات الحيوانات تختلط بحفيف أوراق الاشجار • ولم تستطع مغالبة نفسها اذ انحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وهي تقابل جموع الاقارب الذين خرجوا لاستقبالها فرحين بعودتها اليهم ••

ـ سأهرب متى اتيحت لي الفرصة ••

كان الصوت بعيدا وضعيفا جدا • وامتلأت بشعور غريب وهي تستنشق هواء القرية الجاف ، وتلقي بنظراتها الى آخر الحقل : قطيع الاغنام • النهر العريض • أشجار المشمش • زرقة السماء ••

أثار ذلك كله في نفسها ذكريات الطفولة ••

ـ سأعود قريبا ••

لم يكن الصوت صوتها هذه المرة • كان صوتا غريبا عنها تماما • انها تحس بأنها مرتبطة بهذه الارض الندية التي تبعث برائحتها الذكية ، ببيتها القديم الذي شهد مولدها وأول سني عمرها ، بهذا الوشم الازرق القديم الذي ينهش يدها البيضاء ويذكرها بواقعها الذي لا مفر من مواجهته مهما حاولت النظر الى الوراء ••

وتختلط أمام عينيها الصور : بيتها في المدينة كئيب يعوي الفراغ في جنباته • سيدتها التعيسة تحن الى طفل صغير وتنتظر اوبتها اليها ولكن دون جدوى • الرجل الذي سيقتحم حياتها خلال الايام القريبة المقبلة • بيتها في القرية • اشياؤها هي • طفلها الذي يعربد في ارجاء الحقل ••

ـ تبكين ؟

ـ أبدا يا أمي • انها دموع الفرح •

وتعانق سعدى أمها بشدة وتجهشان معا بالبكاء ••

دمشق ـ بهيه سكر

رسالة مغترب

قنوع

شعر : مصطفى ابراهيم حفنون

ضاقت الدنيا بوجهي حالما … شتت الاصحاب والجمع افترق

عندما المركب وآفاه الغرق … غابت الانوار والليل اغتبق

لا تسل عني ولا عن صاحبي … نحن في اللجة والموج اندفق

كلنا يرجو نجاة انما … لم يكن في البحر درب او نفق

باعد التيار فيما بيننا … لفنا الاعصار لم يبق رمق

قصة الطوفان لا تذكر .. اذ … حدث التاريخ عنا وصدق

اين مني اخوة اصحبهم … في طريقي كلما اصبح انفلق

اين مني رفقة ضحكتهم … تشرق الاكوان تجتث الغسق

ماتت البسمة مذ فارقتني … يا رفيق الدرب والدرب انغلق

لا تسل عني ولا عن حاجتي … مضني التحنان والقلب احترق

لا تسل عني انا في عزلتي … احسب النجم على الارض انطبق

لا تسل عني انا في وحدتي … رفقتي الاقلام اخواني الورق

لا تسل عني انا في غربتي … نهث وسواس وسهد مع ارق

مذ نأت عن ايكنا اطياره … خفق الخفاش والبوم نعق

كم لنا من وقفة في ساحنا … كم جرينا مثل فرسان السبق

كم سعينا في ربى ربوتنا … كم على الزنبق نغفو والحبق

كم عركنا زهرة معطارة … فاح منها الطيب والمسك عبق

حنت الدار الى ابنائها … كم بها يا صاح صادينا خفق

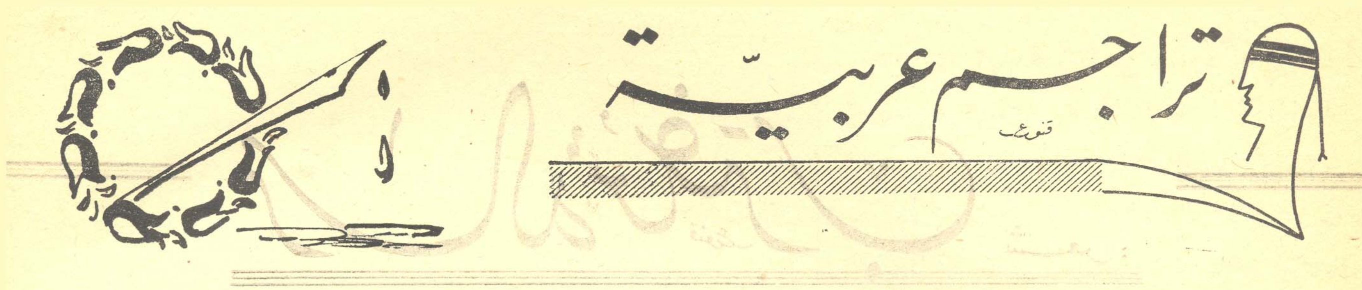
يا رفيق الدار ما زالت لنا … جد في مسراك فالمركب انطلق

تربة الاوطان لا يعدلها … اصفر رنان في الكف برق

من رضي بالمال عن اوطانه … جاحد النعمة معتوه فسق

لست ارضى الخلد عنك بدلا … يا بلاد الشام يا نور الحدق

انت خلد الله في نعمائه … ما تعالى الخلد عنك او فرق



الطبيعة في شعر الشابي

بقلم : صلاح الدين موسى

عندما نتحدث عن الطبيعة عند هذا الشاعر يجب أن نميز بين احاسيس بين من يصف الطبيعة لانه يراها وسيلة من وسائل اللذة والتنعم وبين من يصف الطبيعة لانه يعبدها وينظر اليها نظرة عاطفية رفيعة تنبثق من مشاركته لظواهرها والاندماج في محسنها الاول قد يقف عند المشاهد الطبيعية فيستقصيها ويتتبع دقائقها وتمزج من قراءته بلوحة فنية رائعة ولكن هذه اللوحت على روعتها وجمالها تفتقر الى احسس الخاشع المتصرف الذي نجده عند الشاعر الذي يصف الطبيعة وصف العابد لروعة معبوده وفي هذا الاحساس يقف الشابي قمة شامخة بين الشعراء المعاصرين الذين ظفرت الطبيعة في شعرهم بنصيب كبير .

ان الطبيعة التي يصورها الشابي ليست متعددة المشاهد ولا متنوعة المناظر ونحن لا نعثر عند قراءتنا لشعره على « اللوحات » الطبيعية الكاملة فلا نرى وضعا خاصا بنهر او روض او غير ذلك من المجالي الطبيعية عبادة عميقة تصل به الى درجة الفناء في جمالها الاخاذ وان شعوره في سذاجة المتلذذ المتنعم ومن هنا انعدمت التفاصيل والاوصاف الدقيقة التي نجدها عند غيره من الشعراء وانعدام هذه التفاصيل لا يستطيع تأصل المشهد الطبيعي على انفراد فهو اذا تأمله أضفى عليه احساسه وألامه وهو في ذلك يسير وفق نزعته « الرومانسية » تلك النزعة التي تتجه الى الانصراف الى الطبيعة والهيام بما فيها من سحر وغموض والركون الى أحضانها التي تهيء البعد عن الانسان وشروره وفوضى الحياة المادية وما فيها من رذيلة وفساد ، الى الركون الى الطبيعة مزاج مميز لتلك الشخصيات التي تجنح الى المثالية وبساطة الحياة وطهرها ، ولقد بلغ من سيطرة الطبيعة على الشابي وحبه لها ان كانت استعاراته وتشبيهاته أصداء لجمالها وقصائده حافلة بهذه الامثلة الرائعة التي تدل على عمق احساسه ولعلنا نجد مثالا على ذلك قصيدته « صلوات في هيكل الحب » فان عذوبة فاتنته لا يوازيها ولا يشبهها الا عذوبة السماء الضحوك والليلة القمراء والورد والصباح الجديد وهذه التشابيه عبارات موحية تكاد تكون قصائد قائمة لذاتها بما توحيه من ظلال ناعمة يتفيأها القاريء المتذوق وانا أترك للقاريء أن يتشعر عمق هذه الكلمات : « السماء الضحوك ... الليلة القمراء ... الصباح الجديد . ان القراءة المواعيه لهذه القصيدة ولغيرها من قصائد الشاعر مؤكد لنا انه كان يعيش شعره بكامل اماسيه وانه لشدة حبه للطبيعة يكاد يذوب من جمالها السرمدي ويغلب على أصحاب هذا المزاج الرومانسي الذي يعبد الطبيعة أن يتخذ من

مظاهرها وسيلة للتعبير عما في نفسه فهي ليست منفصلة عنه وانما تراها خلال آلامه وأفراحه ، ماذا طغى الهم على قلبه فان أبرز المناظر في شعره تلك هي الحزينة الشاحبة واذا اشرقت البهجة في قلبه وأطل البشر على آفاق حياته المتجهمة فان تصويره للطبيعة يكون حافلا بهذه الصور التي تنسيه آلامه وتعزيه في أحزانه ولو ذهبنا نتتبع هذه الحالة النفسية في شعر الشاعر لوجدنا الامثلة العديدة ، فهو في ثورته على شعبه . تلك الثورة التي عبر عنها أحسن تعبير في قصيدته « النبي المجهول » لا يجد ما ينقل الى شعبه ثورة نفسه الا الرياح العاتية والاعاصير الطاغية لانها أقدر على تحطيم جذوعه الخائرة البالية ، وفي قصيدته (ارادة الحياة) يستجد تلك الارادة الخالقة المبدعة من الطبيعة ويستوحيها من حكمتها الخالدة فيصورها في صورة من ينفر من الموتى لانها تحب الحياة وتحب تجددها وآية ذلك الربيع الذي يقبل بعد تعاقب الفصول فيبعثها من خمود ويطلقها من قيود ... وقد يطول بنا الحديث لو ذهبنا نتتبع هذه الصور في شعره ولعل مكانها غير هذا المكان الذي قصد به الحديث العادي الذي يلمس الموضوع من بعيد تلك اللمسة التي يغني فيها التعريف عن الدراسة والتحليل .

ولا بد لفهم الطبيعة في شعر الشابي من وقفة قصيرة على الفصل الذي يعقده في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » - ولقد كانت أغلب الدراسات التي قامت بها نخبة كريمة من الادباء ناقصة لانها لم تلتفت في دراستها الى الاراء التي ضمنها هذا الكتاب وهي وحدها الكفيلة بايضاح الروح الشعرية التي تغلب على شعره هؤلاء ذهبوا يلتمسون الطبيعة في شعره ولم يدرسوا الرأي الذي اتخذ منه نبراسا يسير على ضوئه في كل ما أنتج ولذلك ابتعدت دراستهم عن التركيز الصحيح ومن الآراء التي تحتاج الى تدقيق هذا الرأي الذي يرى في شعر الطبيعة ما يتصل بوطنيته برباط وثيق وأحسب أن شعر الطبيعة عند الشابي لا يدخل الوطنية الا من بابها الضيق وما أشك في أنه شعر الطبيعة ذو صلة بعيدة بالوطنية متى انصرف الى تصوير مشاهد الوطن وغايته من ذلك تحبيبها الى مواطنيه ولكن الطبيعة عند الشابي لا تحفل بالمشاهد التونسية وانما تتغنى بجمال الطبيعة في مظهره العام ولسنا نعثر في شعره المنشور على أية صور لمواطنه وتعود الى رأيه الذي أوضحه في كتابة الخيال الشعري عند العرب **بعد أن تعرض لنشأة** شعر الطبيعة في الادب العربي فنلاحظ أنه في هذا الرأي يذهب مع نزعته الرومانسيه الى الحد الذي نري فيه : ان الادب العربي كان واقفا من الطبيعة لا وقفة الاخرى الذي لا ينطق والاعمى الذي لا يبصر اضواء النهار » ثم يمضي في استعراض شعر الطبيعة في جميع عصور الادب العربي فالشعر الجاهلي والامري كان خاليا أو كالخالي من هذا الشعر الذي ليتغنى بمحاسن الكون أو يصف الطبيعة في مجاليها الساحرة ومظاهرها الفاتنة . اما العصر العباسي الذي بلغت فيه الحضارة العربية أقصى درجات التصبح والاكتمال وتوفر للادب من الاتصال بالشعوب ما بث فيه الحياة فان أدب الطبيعة قد ظفر فيه بمكانة ظاهرة وللشاعر رأي ومكانة من الحقيقة ومجمله أن الفن الطبيعي في الادب العباسي أبعد نظرا وأعمق خيالا وأدق شعورا منه في الادب الاندلسي رغما عن ان البلاد الاندلسية أشد جمالا وأعظم روعة من البلاد الشرقية ، ويعلل الشاعر هذه الظاهرة « بانغماس الروح الاندلسية في الحضارة انغماسا أصبحت معه الطبيعة في انظارهم وسيلة خاصة من وسائل اللذة لا منبعا خالدا من منابع الالهام ولذلك كان الشعر الاندلسي دقيقا طليا ولكنه قليل الحظ من عمق الشعور الادب الاندلسي ديباجته غضة ناعمة وتعابيره عذبة ناصعة ووضعه دقيق جميل ولكن ليس وراء ذلك عاطفة مادة أو احساس عميق » وتفسير هذه النظرية الى الادب العربي والى شعر الطبيعة منه يجب أن تلتمسه في هذه النزعة الرومانسية وفي التميز بين احساس من يصف الطبيعة لانه يعبدها ومن يصف الطبيعة لانه يراها ، ولقد كان الاندلسيون من هذا النوع الاخير ولذلك لم يجد شعدهم صدى

عميقا لدى الشابي الذي يرى « أن النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة ازاء النظرة العربية مهما بلغت من العمق والشعور ، وشعراء العربية لم يعبروا عن احساسات شعرية عميقة لانهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحي الجليل وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منحقد وطراز جميل وهي لا تزيد عن الاعجاب البسيط ومثل هذه النظرة لا ينتظر منها أن تشرق بالخيال الشعري الجميل لان الخيال الشعري منشأ الاحساس الملتهب والشعور العميق وشعراء العربية لم يشعرو بتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة الا شعورا بسيطا خاليا من يقظه الحس وتشوه الخيال ... »

هذه لمحة قصيرة عن الطبيعة في أدب الشابي وربما كان من تمام البحث عرض هذا النموذج لشعر هذا الشاعر العربي المبدع :

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا بعيد بوحدتي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال وفي الغابات وبين الصنوبر المياد
ليس من شواغل العيش مايعرف نفسي عن استماع فؤادي
أتغنى مع البلابل في الغاب وأصغي الى خرير الوادي
وأناجي النجوم والقمر والاطيار والنهر والفياء الهادي
عيشه للجمال وللفن أبغيها بعيدا عن أمتي وبلادي
لا أعني نفسي باحزان شعبي فهو يحيا بظلمة الآباد
حسب نفسي من الاسى وما لديهامن طريف مستحدث وتلاد
وعن الناس لا أفكر في الناس ولا في حديث تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والافك ومن ذلك الهراء العادي
اليه منه خرير تلك الينابيع والجواري وشدو تلك الشواري
وحفيف الغصون نمقها الطل وهمس النسيم للاوراد
هذه عيشة تقدسها نفسي وأدعو لمجدها وأنادي

بقلم : صلاح الدين موسى
مدرس الادب العربي في ثانويات دمشق





بسرعة!..
على طائرات
كوميت ٤ سي
الى
أوربا
الشرق الاوسط
الشرق الاقصى
MEA
CEDAR Jet
طيران الشرق الاوسط
للاستعلامات وحجز التذاكر خابروا:
دمشق
شركة الشرق السريع «اورينت اكسبريس»
هاتف ١٩٨٤٦
صفة بردى: هاتف ٢٤٩٩٣
حلب
شركة سفريات ارسان
شارع بارون
هاتف: ١١١٥٤
والمكاتب المعتمدة لدى «الياتا»



لسيمات عواد



- ١٧ -

الدم الامبراطوري في عروقي اختلط منذ مئات السنين بدم البسطاء والمستضعفين . ولهذا لا تلوموني ان وجدتم في بعض تصرفاتي سلوك البسطاء والمستضعفين !!..

الدم يتلوى في شراييني حارا كالظهيرة . ورغم ذلك فلا بمقدور الدم الملكي في اعصابي ان يزيح قوافل الضباب عن وجه الاله في نفسي .

العرافون كتبوا منذ قرون عديدة ، انني سأشنق الشيطان في أعراس الآلهة . ولما عدت الى دفاتر العرافين الصفراء وجدت ان الشيطان لا يزال يضحك بين السطور كينبوع ماء بين الجبال !!...

- ١٨ -

انا ثمرة تاريخ عجيب من النبل والفروسية . ثمرة ضاقت بعصيرها السكري في بستان الفداء والتضحية .. اسراب النحل وقطعان الفراشات والطيور ترامت على عصيري الحلو ، على خلاصة تاريخي العجيب، فامتصت منه روح الحلاوة وبقيت وحدي في بستان التضحية والفداء ، معلقا كوجه اله في سماوات البراءة ، متألقا كالقمر ، في ليل التفاهة ، رغم نضوب عصيري الالهي الحلو المقدس !! ...

- ١٩ -

من يتقدم الي بغصن زيتون . من بمقدوره ان يمسح الخبث من السنة الافاعي والغيلان صناع التفرقة والظلام .. ويسحق المكر والعبودية من افئدة اشباه البشر المتعفنة ...

آه .. اين اجد النار الخالقة ، التي ان وضعتها على جراح المعذبين والمظلومين والتعساء ، المترقبين بزوغ شمس الحرية والعدالة والرغد ، فاضت بالخير والبركة ، ودفقت بالجمال والنبل والصلاح !!..

- ٢٠ -

قبل ان يطوينا الظلام هات يدك يا قلبي ولنحفر معا قبرا أعمق من الالم ، ندفن في احشائه كل اشباه البشر !!..

البارحة مررت بمقبرة المدينة . وكان الليل يقتلع خطاه كنفسي وقد غرقت في عباب الاسى والعذاب . فرأيت ما تعجز عن وصفه المواهب المبدعة ..

رأيت القبور تتحرك ياقلبي وسط الاضواء المنبعثة من عيون المصابيح كما تنبعث الدماء من اغوار جرح يئن .. والجماجم المسكينة تنتفض حانقة في الزوايا الرطبة والكهوف ... والحفارون يوسدون في كل دقيقة بائسا يتوغل في ظلام العدم ..

كم سرينا ورطوبة الموت تسترق الخطوات اللعينة في اعماق ضلوعنا ... حياتنا ، نفوسنا ، كلنا ، قبور تتألم وتشعر وفي القبور الصماء ينوح مزمار العزلة في الفلوات الباكية .

هات يدك يا قلبي ولنسخر من كل مهازل الحياة !!..

- ٢١ -

سأمزقك يا قلبي وانثرك مع رياح الشمال . سأسحقك يا ضلوعي والفظك في مهاوي الجحيم ...

ليس كرها بالحياة ، ليس كرها بنفسي . ولكن .. ولكن ضنا بالارهاق ضنا بالعناء الذي لا يفيد !! ..

كيف تصرخ في اعماقي وتطوي الايام ثائرا معربدا، وانا الذي احتملك يا قلبي اكثر مما تحتمل الايام قساوة الدهر وظلم القدر ..

كيف تنوشني وانا الغيمة السوداء الممزقة في كربة هذا الوجود الابله !!

ففي كل مرة ارى وجها شاحبا من وجوه ابناء بلادي ، وفي كل مرة ارى جائعا ، عاريا ، يتوسد الارصفة والزوايا الحالكة ، وفتاة صغيرة ، كالبرعم ، تنام ، نصف عارية في ركن منزو تحت لفح الريح ورهبة الظلام ، احس كأن خنجرا حادا يا قلبي يمزق روحي كقطيع من الغيلان ٠٠٠

لو كنت غنيا ، لوجدتني أمسح دموع البائسين والحزانى ، آوي ابناءنا المشردين ، افتح الملاجىء ، ارفع قباب المستشفيات ، اشيد المعامل ٠٠ ولكن ، ولكن يا قلبي ليس لدي سوى شعوري الفياض ونيراني المتأججة ٠ ليس لدي سوى قلمي الثائر ادافع برشاشاته القاتلة ، أمام الرءوس الجوفاء ، أمام النفوس التافهة ، أمام القلوب المتحجرة التي اغلقت ابوابها تجاه صرخات الاطفال الجائعين ، تجاه بكاء الامهات الثكالى ، تجاه كل صوت انساني لهيف ٠٠٠

وكثيرا يا قلبي ما حطمت الاقلام الحرة ، تماثيل الرءوس الصخرية والقلوب المتحجرة !!٠٠

- ٢٢ -

بابل ، بابل القرن العشرين تولد في قلبي من جديد ٠٠٠ شوارع صاخبة ، حانات ، مراقص ، كهوف ٠٠٠ وشبان يلتهمون تفاح النشوة بفجور وعربدة !! ٠٠

آه ٠٠ ها هي القوافل تأتي ٠ جاريات ، خمور ، زمرد ومرجان ٠ شاي توابل من سيلان والهند ، حرير خزف من الصين ، زهور ، سجاد من ايران ٠٠٠ بابل ٠٠ اين قوافل العلماء والفلاسفة والشعراء المبدعين ؟!٠

- ٢٣ -

نفسي ظمأى ٠٠٠ فأين ينابيع الفكر والثقافة النيرة ؟!! نفسي جائعة ٠٠٠ فأين خبز المعرفة وخمرة الفلسفة ؟!!٠

وأمامي ٠٠٠ ماذا اجد في دروب الحياة اللعينة٠٠٠ لا شيء سوى رجال من خشب يرتدون اردية من ارجوان ، بوجوه خزفية مموهة بالذهب مطلية بالفضة٠

- ٢٤ -

لا ٠٠ لن اكون عاقلا مثلكم ، اجتر حياتي اجترارا واموت الف ميتة في النهار ٠٠٠

لن اكون عاقلا احمل على منكبي ظلامات العصر ثم أقهقه في سجون الذل سعيدا كشجرة تفاح مزهرة٠٠ اواه ٠٠ كيف لي ان افرح بحياتي الخضراء طالما اجد عمري مقبورا بينكم ٠٠ انني ارثي نفسي كوني اعيش في هذا الزمان وكوني احيا في هذه البقعة المتعفنة السوداء ٠٠٠ انني انفجر كيدا وغيظا من اوضاع مجتمعاتكم الذليلة ، لا ٠٠ لن اكون عاقلا مثلكم ، مثل نفوسكم الحقيرة التافهة التي تعيش في ماضي القرون ولا تفكر في حاضرها ، حتى ولا مستقبلها ٠ همها رغيف الخبز الممزوج بالدم والذل والدموع ٠٠٠

لا ٠٠ لن اكون عاقلا مثلكم ، اسبح بحمد زعماء أنانيين لا يفكرون ، ولا يعملون الا ، لامجادهم الشخصية، يكدسون الملايين في خزائنهم المتخومة على حساب دمكم وكرامتكم ، ولا يردعهم ضمير عن تمزيقكم وبيعكم في اسواق العبيد لقاء سموهم وازدهارهم ٠٠٠

لا ٠٠ لن اكون مثلكم نفاية بشرية ادب صعلوكا على وجه الارض !!٠٠

ان من يتكلم على هذه الصورة ويجهر برأيه غير وجل ولا هياب ، ينعته مجتمعكم التافه ، بالمجنون ٠ ولذا ، فأنا مجنون ، بل كبير المجانين لانني ارفض حياة الذل والفقر والهوان كما تمارسونها انتم ٠٠٠ ولانني اكافح في سبيل الظفر بالحرية ، لنحيا شعبا له كرامته وله عظمته ، لنحيا اسوة بالشعوب الراقية العظيمة ٠٠٠ ولانني ارفض بعناد وكبرياء ان اجعل من افكاري ومشاعري مطايا ذليلة لمخاليق سفهاء ٠٠٠ لمخاليق لا يستحقون ان يكونوا حروفا مضيئة في صفحات التاريخ ٠٠٠ سأظل متمردا ، ثائرا على قيودكم اللعينة٠ سأظل صريحا حرالتفكير مجاهرا بكل ما اعتقد ٠٠ سأظل صريحا حر التفكير مجاهرا بكل ما اعتقد ٠٠٠ سأظل نقي الضمير كغيمة بيضاء ، احيا بأجوائي الصافية وحريتي ٠٠٠ سأظل نسرا ازرع الآفاق هناك ٠٠٠ هناك في دنيا الانفة والكبرياء والاحلام المشرقة !! ٠٠٠

- ٢٥ -

التنين الوحش يستيقظ جائعا من جديد ويغزو دنيانا مسربلا بالهمجية وهدر الدماء ٠ ها هو يتغلغل كالموت في اعماقنا ، يسري في دمنا كالطاعون ، يسحق ازهار أرواحنا ، يهشم ادمغتنا ، ويتعالى اعمدة من غبار ودخان ٠٠٠

اعماقنا هاجرت منها طيور الطهر والصفاء ، صفاء الضحكة القلبية الشبيهة بفراشة من مخمل ٠ دماؤنا لم تعد انهارا ارجوانية تعبر فوقها مراكب البحارة الشجعان والصيادين المغامرين ، ارواحنا لم تعد تلك الصبايا النقيات كدمعة الدم تذرفها لدن تضم طفلها الى حضنها في ساعة الرحيل او العودة منه ٠ ادمغتنا لم تعد أبطالا يخلقون الابداع ، يصنعون التاريخ ، يسلبون الحياة كل ثرواتها العبقرية وكنوزها الفكرية وكل ما فيها من حرية وخير وجمال ٠

التنين ينحرنا كالسرطان ، يتجرع خمرة نفوسنا كقرصان ، يحيل حياتنا الى جحيم ، الى فناء ابدي بطيء ٠٠

سأقتل هذا الوحش ، سأقتله ، وأدع اعماقي صافية كالمحبة ، ودمائي نقية كالدموع ، كقطرات المطر فوق قمم ثلجية ٠٠٠ ودماغي حرا كالولادة ، كالصباح السائر بخطى وردية الى التلال والمروج والمدن الغافية على بوح الياسمين وغناء الامواج ٠٠٠

فن التصوير وتراثنا القومي

فنون

بقلم : طارق الشريف *

اذا حاولنا ان نبحث عن المشكلة الاساسية التي يدور حولها نقاش الفنانين والنقاد ، وتشغل الرأي العام المهتم بالفنون التشكيلية ، في هذه المرحلة من تطور النهضة الفنية في بلادنا ، يمكن أن نلخصها في السؤال التالي :

ـ هل نستطيع خلق نهضة فنية سليمة تبرز انتاجنا الفني عالميا ، كأمة جديرة بماضيها ، دون الاعتماد على جذور تربطنا بتراثنا الفني وبواقعنا المحلي ؟

أو بعبارة أخرى :

ـ هل يمكن للفن في بلادنا السير خطوات الى الامام ، اذا اعتمد على التراث الغربي في ميدان الرسم والتصوير ، دون ان يأخذ بيئتنا الخاصة ، وتراثنا الحضاري بعين الاعتبار ؟

الفنان العربي في سورية بدأ يشعر منذ فترة ليست بعيدة بأنه أخذ يشق طريقه ليأخذ مكانته المرموقة منذ ان بدأت لوحات فنانيه تغزو المعارض الاوربية والعالمية ، وتنتزع بعض الاعجاب والتقدير .

ولكن الظاهرة المرافقة لهذه البداية الطيبة ، شعور الفنانين والنقاد بأن النهضة الفنية الحالية ـ وان كانت ذات اهمية في دفع التطور الفني في بلادنا الى الامام ـ ما زالت تشكو من طغيان أوربا والتراث الحضاري الغربي نتيجة لتأثر فنانينا جميعا بكبار الفنانين الاوربيين وتتلمذهم على لوحاتهم وانتاجهم .

وهذا التأثر ، قد تبعته نتيجة أساسية ألا وهي الانفصال الكامل عن التراث الفني العربي نتيجة للشعور بالنقص الذي رافق فترات الانحطاط التي مرت على اجيالنا العربية ، وقد انعكس هذا الانفصال على شكل شعور بضرورة التقليد أو بالاحرى الانسحاق الكامل امام الحضارة الحديثة التي بدأت تغزو حياتنا اليوم .

الفنان الاوربي يتجه اليوم نحو اغراق نفسه في البحث عن أساليب جديدة وطرق مبتكرة للتصوير تبدو للمشاهد العادي غير مألوفة . حتى اصبح حب التجديد ، والولوع بالابتكار ظاهرة مرافقة لكل الانتاج الفني الحديث ، وهذا التجديد قد دفع الفنان الى طلب المصادر الموحية له من كل جهة ومن كل بلد دون اي شعور بمسؤولية حضارية أو دون أي ارتباط بواقع معين . الاوربي يستقصي مصادر فنه من كل منبع ، ولكنه يتمثل ما استقاه ويعيد خلقه في قالب جديد ، ومبدأه الاساسي أن يحافظ على خط سير معقول ، وعلى شخصية متكاملة متطورة يتدرج الفنان فيها ويتطور بخطوات واضحة وواثقة من نفسها .

اي انه يتمثل ما يأخذه من حضارة أو تراث غيره فيطرح منه ما هو دخيل ويبقي ما هو اصيل ، أي ما هو فني في رأيه . حتى يتمكن من ان يجد له مكانا في ذاته ، كي يتجاوب معه . فلم يصبح لذلك عبدا لشتى التأثيرات والنظريات والمدارس ، بل اصبحت المدارس والاساليب تخضع له حين يجربها ويدرسها ويستخلص ما يتجاوب معه فيها . لذا نرى ان هذه التأثيرات قد فقدت كل صلاتها بمنشئها لتصبح شيئا يتمثله الفنان كجزء من شخصيته لا يمكن ان ينفصل عنه .

فالفنان حر يستطيع ان يأخذ ما يشاء ، وهو حر يختار ما يحلو له من اتجاهات ، شريطة ان يتمثل ما يأخذ ليكون هذا مساعدا على نموه وتفرده وتفتح شخصيته ، وحتى يجد طريقه الخاصة .

ولعل اهم ما نشكو منه ، وننقده في كل المعارض التي نشاهدها ، والتي ينظمها كبار فنانينا شعورنا بطغيان المأخوذ على الآخذ ، وضياع شخصية الفنان امام اتجاهات شتى لفنانين متعددين ، وهذا يعني ان مرحلة النضج لم يصل اليها احد طالما انهم ما زالوا في مرحلة التقليد التي تسبق مرحلة الابداع .

واذا تساءلنا السؤال التالي :

- كيف يمكن خلق حركة فنية خاصة بنا ، معبرة عنا ، لا نقلد فيها غيرنا ، بل نبتكر ما يوافق شخصيتنا ، أي نأخذ دون ان نقلد ونستفيد دون ان نضيع ؟

- ومن أين نستقي المواضيع الجديدة ، دون ان نجتر تراثنا او نحاكي تراث غيرنا ؟ وما هو المصدر او المنبع الذي يقدم لفنانينا مادة لوحاتهم ويشعرهم عند معالجتها بأنهم بدأوا يحاولون ابتكار ما لم يبتكر ويحاولون رسم ما لم يرسم بطريقة لم يسبقهم احد اليها ؟

ويمكننا القول هنا في محاولة للاجابة على السؤال ، بأن القيمة الفنية للوحة معينة تنبع من اللوحة بالذات ، لا من افكار خارجة عنها ، **هذا شيء اكيد** ومتفق عليه ، ولكننا نضيف الى ذلك بأن انتاج الفنان لا يمكن ان يقيم من خلال الدراسة الفنية لكل لوحة من لوحاته بشكل منعزل عن غيرها . وكذلك لا يمكننا الحكم على مدى التقدم الفني في بلد معين عن طريق دراسة كل فنان بشكل منعزل عن الآخر ، بل ان الحكم على جودة انتاج فنان يعني ضرورة وجود شخصية متميزة له تؤكد تجاوزه لمرحلة الاتباع وتعني اصالته الفنية . وكذلك القول بوجود نهضة فنية في بلد معين يعني وجود شخصية فنية واضحة الملامح لانتاج فناني البلد تؤكد تجاوبهم مع مرحلة التقدم التي يمر بها هذا البلد ، وتربطهم ربطا واعيا مع الاحداث التي يمر بها .

وطالما ان هذا الطابع المميز لم يتوفر بعد ، فهذا يعني ان واجبا ضخما قد القي علينا ، وهذا الواجب يتلخص في ان نحاول شق الطريق لايجاد هذا الطابع عن طريق التجارب المتعددة لكل فنان ، وعلى أساس مدروس وخطوات متزنة ، وعن طريق البحث عن المصادر الاساسية التي توجه الفن وجهة احياء التراث ودراسته والتعايش مع حضارة بلادنا ومأثوراتها الشعبية ، وعن طريق معرفة ماضينا الفني معرفة احتكاك وتجربة واعية .

وهذا يلقي على فنانينا مسؤولية ضخمة ، لم يتوفر عندنا بعد من يتحملها ، اذ ان علينا ان نجد عن طريق البحث والتجربة اسسا جديدة لانطلاقتنا الفنية ، وهذا البحث يجب ان يتناول كل تراثنا الفني سواء كان هذا التراث رسوما او زخارفا ، أو خطوطا أو اشكالا هندسية ، ثم محاولة الاستفادة منها واعتبارها كمصدر يستمد منه ، هذا اذا اضفنا الى ذلك الصور والرسوم والازياء الشعبية وما تحتويه من الوان واشكال ، تتمثل في أغلبها العفوية ، وهي بحاجة الى اعادة تركيبها على اساس واع مسؤول ، واخيرا طبيعة بلادنا وما تحتويه من الوان ومناظر .

وهذه المصادر كلها يمكن ان تعتبر نبعا سخيا ومنطلقا لفن جديد لم يعرف ولم يدرس ، وهو بحاجة الى أيد فنية تعرف كيف تعيد تركيب الرسوم والالوان تركيبا جديدا . ان مصدر هذا الفن محلي . ويرسم عن طريق تطوير **اساليب التصوير عندنا** ، وبأيد تتفهم روح حضارتنا وتتمثل كل ما فيها من قيم فنية ، وتحاول دوما ان تتجاوزها بالاستفادة من تجربة الغير ، لتصنع بذور المستقبل الذي يجب ان يرتبط بالماضي ارتباطا واعيا وحيا ، لتستطيع هذه الجذور تغذيته وبنفس الوقت لا تمنعه من أن يشق طريقه نحو النمو والتقدم والحياة .

العاصفة الضائعة

شعر : الياس الفاضل

منتوفة الجناح هذه الليلة
ولدمشق في الشتاء
عينان عميقتان كمحيط لاقرار له
وأنا أكثر الاشياء حزنا وتمردا
اتكىء على غربتي واكتب الشعر
باستطاعتي ان اقهر شوقي للنجوم
وأن اسير ولا ارى شيئا

فيما مضى ، كنت انشد المرافىء الزرقاء
حيث للغروب عطر جزر اللؤلؤ البعيدة
وأحلم بفأس انكش فيه صدر العالم
وبرفش ازيح به التراب
عن مملكة المدن السبع
والآن دفقة عطر أنا .
بلا بيت وبلا عنوان
ارنو الى البحر الوسيع واتنهد
واتطلع الى السماء
وفي اعماقي شاعر مشرد ضجر
فيما مضى كنت احلم بقارب مسحور
جناحاه بلون الحب في عينين عاشقتين
ومجدافه من ارز لبنان
يحملني في عبه الوردي الجميل
الى كون أكثر عذوبة
من لقاء المحارب العائد الى ذويه
والآن ، اخاف ان افيق ذات صباح
وأنا على الرمال الباردة
بعيد عن قرقعة القوارب المسافرة

ايتها المدينة الشاحبة
شحوب اليتامى الجياع
باسطا طويلا ممدودا على جبيني
خمسة وعشرون عاما يا هزيلة
وأنا اغذيك باحلامي وزهري
واطعمك عذابي وغربتي وشعري
ولم ينطلق القطار الذي انتظر
من قلبك الجليدي المريض
وأمس في بلد المبصرين
شاهدت مناحة
بلا دموع وبلا اكاليل
قيل ان صاحبها
حين يبست عيناه
وضع في تابوت من الورق الاصفر
ودفن في قبر من الطين الحقير

صلاة المبصرين كانت :
« لقد وضعت الفأس على اصل الشجر
وكل شجرة لا تثمر
تقطع وتلقى في النار
اننا نريد شجرة تظل خضراء
نقسم باسمها
فتعطينا الاريج والثمار الناضجة »

هبي ايتها العاصفة
وطوحي الهشيم ومحابر العدم
واستيقظي ايتها المدينة الغافلة
قبل أن يتوالد الدود في الهياكل
ويتكاثر الجراد على رخام المعابد
هبي .. هبي ايتها العاصفة .



العائد!

قصة

بقلم: عبد المعين ملوحي

أغلقوا نوافذ السيارة : اقتربنا من بحيرة قطينة ، البحيرة تنام في سريرها ، وقد غطت صدرها بغلالة من الضباب ، وأطلت عليها ذرى جبال عكار تمشط شعرها الابيض وتفرقه ذؤابة بعد ذؤابة .

أول صناعة ثقيلة في سورية تصرخ : أنظر الي فأنا هنا ، وقد ارتفع ألف نتوء سرطاني كأنها ثدي امرأة سمينة فوق الوعر الاسود ، وامتد لسان مصفاة البترول يلفظ نارا ودخانا ، وكدت لولا قليل تشم بخر هذا الفم الاهتم .

من بعيد مآذن خالد بن الوليد الشاهقة تخز عينيك بأهلتها الصفر اللامعة ، وتلحق بها القبة الكبيرة تحاول أن تنهض وترتفع فوق المآذن ثم تتعب من المحاولة وتقعد في مكانها وتتربص .

عمود الرائي « التلفزيون » يشمخ فوق القلعة ، وينتظر الليل ليحمل في رأسه شعلة حمراء ، تبدو كأنها تتدلى من السماء تزحم مواطن النجوم .

ويغضب التاريخ ، تاريخنا القديم ، كيف لم نره ، ووكز بمرفقه القلعة فبدت فجاءة وقد تهدمت أسوارها من هول الوكزة ، ونكس ما بقي منها رأسه ، باحثا عن أحجاره المتناثرة عند قدميه .

وتغيب المدينة مرة أخرى فلا يظهر منها شيء . لكأنك خرجت الآن من دمشق ، وتسرع السيارة وتجهد في قطع الطريق .

الساعة الرابعة بعد الظهر والشوارع تستريح من زحام الناس وتنام في القيلولة ، والاوراق تلعب بها فتهبط قليلا لتلحس الارض بألسنتها الظمأى ثم تصعد الى الجو وهي تكاد تحترق بحرارة الارض وتتقاطع وتتدافع كأنها أسراب من السنونو ، الا أنها ذات ألوان .

ومد رأسه من زاوية يعلم أنه يرى منها بيته ، ورآه فعلا . تمطت نوافذه ترحب به ، والشمس سبقته الى داخل الغرفة وشعت أشعتها في كل مكان منها ، وأطفال الحارة وقفوا عند الباب ، يبتسمون ولايتكلمون ، وتجرأ واحد منهم أخيرا فسلم عليه وجعلوا جميعا يسلمون ويسألون : أين فلان ؟ أين فلانة ؟ وتدنو طفلة صغيرة كالوردة الذابلة وتمد خدها في استحياء وتقول : أنا شادية ... كنت مريضة ...

وتقول طفلة أخرى : عينها تورمت يا حرام ، وأبوها ما أخذها الى الطبيب .

وتخجل الطفلة : بابا ما معه مصاري . خذني معك للمستشفى ، ويحمل الطفلة المريضة وينظر الى عينها المتورمة ، ويقبلها ، وتأبى أن تنزل .

ويشدها الاطفال من قدميها فترفسهم : اتركوني : هذا عمي .

أليس من نعم العالم أنه ما يزال فيه أطفال .

ويدخل الدار والسيارة ما تزال تدوي أبواقها ولا تستطيع الخلاص من حصار الاطفال ، يلمسونها ويباركونها ، فاذا نجت ولم تكد تنجو هرع أطفال الحي الى آبائهم وأمهاتهم يصيحون من الابواب : جاء من الشام .... جاء من الشام .

الهرة « شامة » عند باب الدرج ، تنام وتموء ، وتسمع صوت أقدام فتذعر ، وترى شخصا غريبا فتهرب ، ثم يبدو لها أن تحدق به فتعرفه ، فتعود اليه

وتتمسح به وتلعق بلسانها قدميه .. وتدخل غرفتـه قبـله .

الهواء الذي جبلت منه عظامه وصنع منه لحمـه تنفتح له النوافذ كلها ، وهو يتنفس تنفسا عميقا ، يريد أن يلتهمه مثل حبيبين طال فراقهما ثم التقيا فتلازما حتى تقول يمتزجان .

وامتدت الايدي من الدكاكين : أهلا ابن الشيخ وصافحته الايـدي ، وحمل الحاج رفعة كومة مـن السكاكر وأدخلها في جيبه قسرا ، وقال له الحلاق : تعال صلح شعرك ، ومضى جلول الى وعاء الليمون فملأ كأسا من الشراب وجاء بها تسيل من جانبيها : بـرد دمك : الحمد لله رجعت لنا ورجعنا لك .

والاشجار مدت ظلالها على الجانبين : لقد شهدت ولادتنا ، وسقيتنا بيدك ، نحن نفخر بك ... « ما الام الشجرة التي ان نطقت شتمت ساقيها » .

في مقر عمله : وجد اخوانه جميعا في انتظاره ، أسرعوا اليه يقبلونه قبلتين وغالى بعضهم فقبله مرارا ، وبكى بعضهم فرحا ، ودخل غرفته .

هنا في هذه الغرفة تتعلق أيام كثيرة من عمـره مصلوبة من أقدامها ، طالما مرت به وهو لا يكاد يراها تمر ، يشغله عنها عمله .... ما أكثر ما يصحو المرهق في عمله من استغراقه ويسأل نفسه كأنه في منام : أين كنت ؟ ماذا صنعت ؟...

وتمتلىء الغرفة بالوافدين والوافدات : أصـدقاء ... تلاميذ ... شيوخ كبار .. صبايا ..

ويرى الغرفة وقد زينتها الاعلام والاوراق الملونة : انزعوها ...

قلب تزيد خفقاته خفقة ، صدر تزيد أنفاسه نفسا واحدا خير تعبيرا من ألف قوس قزح تطرز حواشي الافق .

وبدأ العمل ... ما أحلى العمل :

انه التحية الخالدة الباقية ، حين تزول البهارج وتفنى الشكوك .

هند

شعر: فريد عقيل

أحق بأن الحب ليس له حد … وأن الهوى مذ كان سيده عبد
وأن نداء القلب ملك لأهله … اذا بعدوا ، فالحب من بعدهم ، بعد ..
وأن الهوى والشأن في الحب والهوى … لعينين فيهـا العبقرية والمجد ؟
اذا كان بعد الدار للوصل مانعا … فلا كان بعد عن دمشق ولا عهد ..
كثير على هذا المحب رجاؤه … بليل هموم صبحه الغدر والحقد ..

. . . . .

وقد زارني في هدأة الليل زورة … خيال لها ، مضنى ومبسمه ورد ..
اطل ، وحياني بناعس طرفه … وحييته ، والقصد يفضحه القصد
وبت وإياه العشية ساهرا … كأني وأياها .. ولم نفترق بعد
أقبل خديه ، وألثم ثغره … ويمنعي ، والحب أوله صد

. . . . .

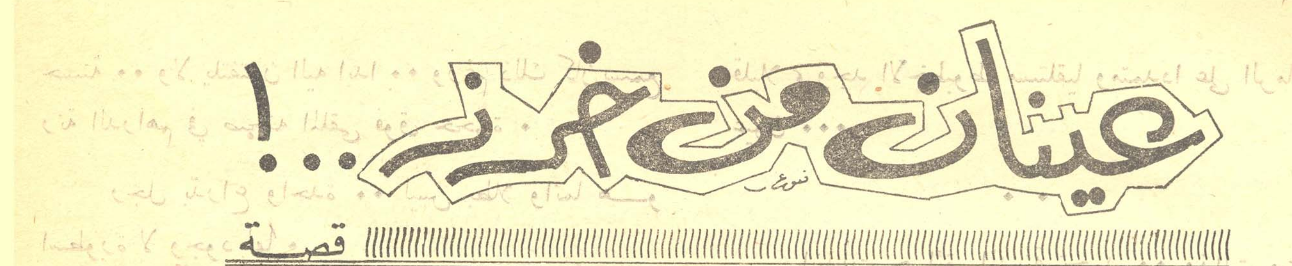
نهلت جمال الحرف من ثغر حرة … عطوف ، كروق الشمس مطلعها السعد
اذا الليل واراها تلظى خيالها … كما يتلظى في الهوى شاعر فرد
مهاة ، ومن اردانها المسك عابق … قديم ، كروح الخلد ينفحه الخلد
اذا أقبلت فالشعر جيد ومقلة … ونحر يماني يزينه عقد
ووجه ، ولا كالبدر ، باد بياضه … وفرع ، ولا كالليل ، فاحم مسود
وعينان ، عينا جؤذر في خميلة … نأت أمه عنه ، وأفزعه البعد
فطوف حول الورد يقتله الظمأ … يهم بورد الماء حينا .. ويرتد
وقد رابه مرأى الظلال وطلعة … تعابثه فيها ، فتبدو ، ولا تبدو
وثغر ، حميا الحب فيه ورونق الشباب وأحلام الغواية ، والرشد ..
يبين بمنثور النظيم وعقده … تبارك منه النثر والنظم والعقد

. . . . .

بنفسي ، اذا جئت السبيل ، وأهله … وحيا اديم الروض وابتسم الورد
ورفت اضاميم العبير وحومت … على ثغرها ، واحمر من خفر خد
وبان كمعسول الرياض نظيمها … كزهر الربى يندى فينعقد الشهد
تهاويل شعر ، هن سحر لساحر … رقى رقية بالشام ، فاشتعلت نجد
الا يا نديمي قرب الراح من فمي … فقد جن وحي الشعر واستعر الوجد
كفرت بأهل الدار برا بأهلها … وقد بعدوا ، فالقرب من صوبهم بعد
وآمنت بالاولى ، فطرف معذب … بحمص ، وطرف للعشيرة يرتد

. . . . .

اذا كان للشعر الذي قلت هاجس … فأوله هند .. وآخره هند



عينان من خرز..!

قصة

* بقلم: عدنان الداعوق

العيون الزرق تلاحقه اينما سار وحيثما توجه .. عيون كالخرز تبحث عنه بلا هوادة، وتظل تلاحقه بجنون وتتبعه كالظل الثقيل.

احس انه قد تعب من المسير ومن الجري مبتعدا عن ظله .. فقد اشرف النهار على الموت وزحف الليل على المدينة، وأخذ يلف الوجود باطلالته الرمادية الاولى.

شعر بفرح وغبطة تملآن نفسه .. فقد تخلص من الشمس ومن النور .. فهو في الليل، حيث الصمت والسكون، لن يستطيع ان يرى الظل الثقيل، ولن تقوى عيناه على رؤية العيون الزرق وهي تلاحقه ابدا ..

واستراح عند الرابية حيث اخذ يتنسم عبيرا جديدا، هو مزيج من الحرية الفردية المطلقة، ومن طمس معالم وجوده الذي يلفه ويضيعه ولا يدري بين آن وآن من هو .. او اين هو ..؟

ووصلت اليه من بعيد رائحة حريق هائل، ظن بادىء الامر انهم يحرقون الاجساد الادمية الحية .. فقد كانت الرائحة كرائحة اللحم المحترق .. وعرف اخيرا، عندما نظر الى الجهة الشمالية، انهم يحرقون القمامات التي تخلفها المدينة كل يوم.

اول الامس، رأى في المنام شبحا، كان هذا الشبح في صورة غريبة .. نصفه من شعاع غير مرئي، والنصف الاخر حيوان بشع الهيئة.

خاطبه هذا الشبح قائلا:

– سوف تشرب يوما يا بني من ماء البحر حتى ينفجر صدرك وتموت ..

هو لم يعرف الموت .. ولكنه احس بتجلد وتصلب اطرافه ..

كانت رائحة الحريق ما تزال تصل اليه حاملة معها عبيرها القذر .. اموات جدد يحترقون ويشرب واياه من ماء البحر .. ويثملان معا من الماء المالح.

الماء المالح يسكر .. اجل بعد اول جرعة لن يستطيع ان يعي نفسه، فيأخذ في الشرب والشرب حتى يسقط على الرمل مغمى عليه ..

حوريات البحر سيهرعن اليه ... سيحملنه الى النبع الحلو فوق قمة الجبل.

لن يستطيع ان يصل الى الجبل .. لقد ولد في الوادي السحيق، ابوه كان فلاحا، وامه كانت جارية في بيت صاحب الوادي .. عندما زهقت نفس صاحب الوادي من الجارية رماها لفلاحه، وقال له:

– خذها. تستطيع ان تكون زوجة ..

الحوريات. الحوريات جميلات يفزعهن منظر اخطبوط البحر .. الاخطبوط يحب لحم الحوريات .. سيمثل امامهن دور البطل الاسطوري .. سيتقلد سيفا من نحاس رماه بحار مجهول يوما من الايام على الشاطىء، ويدخل عباب البحر ويقاتل الاخطبوط ويظل يصارعه حتى يقضي عليه.

ويعود الى الشاطىء منتصرا .. غير ان ذراعه اليمنى يكون قد تركها في فم الاخطبوط قبل ان يموت ويلون البحر الازرق بدمه المالح.

رجل بذراع واحدة.

رآه مرة يمد يده اليمنى، يطلب من الناس

حسنة •• ولا يلتفتون اليه ابدا •• ورغم ذلك كان يسمع رنة الدراهم في صحنه الملقى فوق حجرة •

رجل بذراع واحدة •• ليس بطلا وانما هو اسطورة لا وجود لها •

• • •

مد يده وقبض على حفنة تراب كانت تحت قدمه وقربها من انفه •

رائحتها دود نتن •• اشبه برائحة الاحتراق التي تأتيه من بعيد •

الحوريات تحت اكل الدود ••• دود البحر بلا عيون •

حورية منهن كانت بعين واحدة •• اقتربت منه هامسة :

ـ ألا تحبني ؟•• انت بذراع واحدة ، وانا بعين واحدة ، نحن متشابهان انت فقدت ذراعك في صراع جبار مع الاخطبوط •• وانا فقدت عيني في صراع مع الدود •• دود البحر لا يرحم •

اشفق عليها ، وضمها الى صدره وغابا في قبلة •• واحسا بارتطام الامواج على الصخور وتفتت الصخور عن خرز ازرق ، ظل يستدرجه الموج حتى طمره في القاع •

اين يستطيع ان يجد حوريته •؟

لقد تركته بعد ان سبحا معا ، وغابت عنه •• ولكنه استطاع ان يلمحها بوضوح حين قالت له :

ـ انتظرني على الشاطيء •••

ففعل ، واذ ذاك انقلبت الى شكل غريب •• نصف سمكة ونصف انسانة •• وعادت اليها العين المفقودة •• وشقت الامواج حتى وصلت الى مركب ابحر دون ان يفرد شراعه في البحر •

وعندما عاد الى الشاطيء ، بعد ان هرع وراءها قليلا ، وجد الاخطبوط مستلقيا ومتمددا على الرمال بلا عيون •••

• • •

ابتدأت حرائق المدينة تخمد •• وزالت من انفه رائحة اللحم المحروق ، وهبط الليل بسواده القاتم الشديد على الكون ، وسمع من بعيد نباح كلاب ••

كانت بعض قبائل « النور » ترحل في الليل وقبل ان ينكشف النهار •• وعرف ان الكلاب كلابهم •

قام من مكانه دون ان ينفض قبضة التراب من يده ، وتوجه حيث اصواتهم ونباح كلابهم •

واقترب منهم ••

كانت امرأة عجوز من « النور » تتقدم القافلة الراحلة ••

اقترب منها وحياها •• وعندما ألف وجهها في الظلام صعق وصاح فزعا وارتمى عند قدميها •

كانت النورية العجوز بعين واحدة •••

انحنت عليه ، وقبلت مفرق شعره ، وسقته من لبن في وعاء محمول على حمار يسير الى جانبها ، وقالت له :

ـ مالك مذهولا •• أأنت مجنون اخافته رائحة اللحم المحترق ••؟

اجابها متلعثما في خوف :

ـ كلا • بل انا خائف لانني قتلت الاخطبوط ولونت البحر بدمه المالح •

امسكت بيده بهدوء •• واشارت الى قافلة «النور» التي تقودها ان تقف وترخي رحالها •

وجلست واياه فوق العشب ، وقالت له :

ـ بعد ان تركت البحر وجدت مركبا في انتظاري •• كان ربانه عاشقا فقد حبيبته اراد ان ينقذني من قسوة الامواج ، فانتشلني الى مركبه ، وهناك فقد عقله واصابه الجنون عندما رأى ان نصفي الاسفل قد اكلته

اسماك البحر .. ولم يستطع صبرا فرمى نفسه في البحر ، وسقط في لجة عميقة ودون ان يسمع لصوته اي صدى . وسار بي المركب حتى وصلت شاطئا مجهولا ، كانت هذه القافلة التي تراها في انتظاري وانا اليوم زعيمة « النور » كما ترى ..

. . .

ومدت العجوز يدها الى احد جيوبها واخرجت له عينين من خرز ازرق وقالت له :

ـ خذهما . قد تحتاج اليهما يوما لتبصر اكثر عندما يأكل الدود عينيك هاتين .

اخذ الخرزتين وهو يرتجف ، ودس يده في جيبه ونهض دون ان يلتفت خلفه ، وعاد الى حيث كان يجلس قبل ان يقابل النورية العجوز .

ابوه مات تحت اقدام ثوره عندما هاج مدة في الحقل بينما هو يفلح الارض ، وامه تلك الجارية .. القت بنفسها في الغراف .. وظل لحمها يخرج مع الدلاء المستمرة الدوران اسبوعا .

وهو . هو نفسه ربته احدى النوريات بينما كانت تمر يوما من هناك .. وحملته الى حيث اسقته لبنا ، واطعمته من الخبز المسروق الذي يستولي عليه «النور» من المدينة .

اعترته موجة من غثيان ..

احس ان اعماقه كلها تريد ان تخرج من فمه .

مد يده الى جيبه ، واخرج العينين الخرزيتين .. لقد كان الدود يأكلهما .. الدود يأكل حتى الخرز الازرق .

. . .

أقام الفلاحون لابيه قبرا ودفنوا جثته فيه .. ووضعوا بجانب القبر حجرا كبيرا ، وقالوا هنا سكنت الزوجة الجارية .

وظل هو مشردا ، يطوف من مكان لمكان .. تعلم التشرد والسرقة والطواف المتنقل كالغجر تماما .. فقد رضع من حليبهم عندما كان صغيرا .

حفر في الارض ، عندموطىء قدميه ، حفرة بحجر له نتوء ، وطمر العينين فيها .. وكدس فوق الحفرة ترابا كثيرا ، واسند ذراعه وغفا الى رأسه وغفا ..

وفي غفوته شاهد الشبح الذي رآه منذ ليلتين مبتسما ، حدثه بصوت جليل وقال له :

ـ انت معذب يا بني . اذهب الى البحر .. سوف تجد في زرقته عزاء لك .. حاول ان تهمس في اذن صدفة هناك ، على الشاطىء ، بآمالك .. وسوف تجد الاقدار مجيبة لك ولامانيك . اذهب الى البحر .

واستيقظ من غفوته مرتاحا .. ونهض .

كانت المدينة تسبح بالنور الشرقي الذي طلع مع بشائر النهار الجديد .. والهدوء والصمت يخيم على كل شيء .. ورائحة الحرائق قد زالت تماما وحلت محلها رائحة عطور فواحة من البساتين القريبة .

لم يجد للحفرة التي طمر فيها العينين اثرا ...

ولم يسمع صوت نباح الكلاب ...

بل كل الذي سمعه عبارة الشبح الغريب :

ـ انت معذب يا بني .. انت معذب . اذهب الى البحر سوف تجد في زرقته عزاء لك .

. . .

انحدر في الطريق المؤدي الى المدينة ..

ولاول مرة منذ عهدطويل لم يحس بالعيون الزرق تلاحقه .. ولم يعد يشعر بوطأة ظلها القاتم الثقيل .

سار وقد غابت المدينة بجميع صورها عن نظره ، وغدا يرى عند الافق البحر الازرق يهتف له مهللا مستقبلا ...

حكايات.. الى نجمة الصبح..!

بقلم : ياسين رفاعية

– ١ –

لعينيك الحلوتين أصمت . في محرابهما اصلي . احبك لأختبيء تحت اجفانك .

اظنها تسكن الروح ابتسامتك العذبة . اظنها على الاحلام منتشرة كالشمس . اظنها تنتهك حرمة الظلام لتبدو كالبدر مضيئة .

جائعة ايامي الخاوية اليك ، مجرورة من عنقها لترتمي على صدرك ، من زمان الشوق يمزق العمر ، يدوي في اذني ، يلطخ وسادتي بالوحشة والكآبة . من زمان والرصيف يحمل فتاه الوحيد . يرميه بلا ظل على الاسفلت . من زمان الطاولات تئن في المطاعم والحانات . مضت تلك الايام التي جمعتنا ، والكأس صاف والماء رائق .

مثقل بالحسرة وعارية ايامي الجارحة ، اعض لساني حتى الوجع ، يدي ما زالت غارقة في بحر شعرك الكثيف

يا طفلتي العذبة .. الى اين ..؟

اغربي ايتها الشمس .

– ٢ –

نجمة الصبح

لنطير فوق البحر . نحمل على اجنحتنا اساطير لا تنتهي .

مالك تنطفئين ..؟

اضيء لك السماء بحبنا

بطمأنينة طفل اعدو اليك . أهرع كجائع . يالطعم شفتيك ! على الريق يزرع ازهاره

تلوح لي العربة المطهمة قادمة للمرة الثانية من الغابة الموحشة ، في حجرتها تجمعك كوردة .

بيت ابي مفتوح .

تعالي يا نجمة الصبح ، يا ألف الف مرحبا .

– ٣ –

اليك أسرع . افتح لك ذراعي . احتويك في الصدر المولع بالحزن ، تجذبني نارك المحرقة . فراشة تنهد على جبيني متعبة ، خمد الضوء في عيني . لا أتراجع . الهزيمة منكرة ، والكرامة قمة .

واهم

انها احتضارات الشحارير ، صوتك العذب كان يغني لنا الميجنا . ينقلنا الى وديان وجبال مكسوة بالشجر .

واهم

وتضيع خلف الصخور : الاماني المزدانة بالياسمين .

يا طفلتي . يا نجمة الصبح . بريئة من الخطايا . جائعة للحياة ، افتحي النافذة واستنشقي عبير الخلود .

– ٤ –

كيف اصون نفسي منك ؟

في قلب حصار عينيك أجثم . أطحن اضلاعي .

يا مخرجي الوحيد . العمر احدب والشمس تموت عند الشروق .

من يغرز الحربة في براءتك ؟

انا هنا ، الصمود يقاومني . غدا ادق بابك الموصد فيطردني الصوت الخشن الذي يجرجرني من عنقي والصمت يخرس اللسان .

انهض اليك من القن والديك يمزق بنشيجه الصباح ، اخلع نفسي لاقف اعياء امام الصنم الذي يعبد . امامك

لو ان لك القدرة على الفهم ، لو ان لك القدرة على المنح والعطاء ، لكنت جمعتك بين الضلوع .

طفلتي العذبة . يا فراشتي . الى اين تشدك النار ..؟

– ٥ –

غابة من الصبار تنبت في قلبي . الشوك يتجمع على لساني والقناع سميك يغطي وجه الطفلة الضائعة

يا للجرح العميق

كل شيء يهون • لا ان نفترق •
خيبتني يا حبيبتي
لفظتني كالموج يلفظ الرمل • لكن الموج ياحبيبتي
يرتاح على خد الرمل •
دليني يا نجمة الصبح
من يدخل الغبطة الى قلبك لاكون وسيطا لك اليه ؟
من يرسم الابتسامة على وجهك المتعب لأعطيه الريشة ؟
نجمة الصبح
كوني سعيدة

- ٦ -

الآن
ببلاهة معتوه انظر •
كالخنجر تجرحني الوحشة ، لم تتركي الصور الجميلة للذكرى •

اللحظة ارمق صورتك طويلا • أستنشقها كزنبقة لي حرية التخيل اجعلك بريئة كنسمة ، واحبك •
الآن

أقف من تاريخ عمري اتصفح وريقاته • على صفحاته البيضاء • كانت لقاءاتنا المضخمة بالود والحنان
يا للصفحات المقبلة ، فارغة حتى الاعماق
نجمة الصبح
لا تهوي

- ٧ -

الليالي وحدها تشهد • الحانات الصغيرة والكؤوس الملوثة تشهد ، كبيرا كان ألمي كبيرا كان ضياعي ، والسهد أتعب عيني ما أغلق اجفاني •
آه يا نجمة الصبح
لنشرب الكأس الاخيرة •

- ٨ -

غدا نستعير عكازا لنتوكأ عليه ، غدا نموت ، فماذا يبقى لنا اذا فرقت بيننا الشتيمة • اذا اوعز القدر لجيوشه ان تطلق علينا قذائف الفراق •

استيقظي ايتها المبللة بالخدر • افتحي النافذة الشرقية • الشمس تصعد • الشمس تصعد • اغسلي وجهك وتعالي • أصفح عنك اكثر من اي قديس • مجانا أمنحك قلبي •

- ٩ -

الانكسار يتعرش جبهتي والذل يثقب الرأس •
الكلمات الطيبة لا تجذب الفراشات والقلب الطاهر لا يقطنه أحد •
خائفة كلماتي مبعثرة على صفحة الزمان • منتشرة في النسمات الرقيقة •
طفلا اعود لابدأ غربتي الابدية • الاجراس تقرع واللحن جنائزي والحربة غائرة في الصدر والزمن يتساقط شعره • الساعات رخوة عقاربها لا تدور • انني أسقط ايتها النجمة الفجرية •• انني اسقط •

- ١٠ -

تهجرني حتى الاماني الصغيرة • لا أصدقاء لي •
ايامي غاربة ومصابيح الشوارع مطفأة •
حقول عمري قاحلة الا من الاشواك
تعال ايها الليل الاسود • لم تفارق ايامي منذ رحلت نجمة الصبح عن سمائي • تعال • لنشرب معا نخب الوحشة الطويلة والايام المغربة خلف جبال من اوهام •

- ١١ -

اليأس وحده يقف على قارعة الطريق ، وحده يغلف حياتي • وحده يجمعني على راحته ويضعني في القمقم •

- ١٢ -

الفجيعة تنتشر كالطاعون ، والتبغ الفاخر يثير السعال • ينشر دخانه كدخان المصانع ويوزع الذل والخوف •
ايتها النجمة السمراء

ارفعي رأسك وانت تمرين فوق ارصفة الشوارع ، وجهك لا يليق به الذل والانكسار •

- ١٣ -

الدموع
وما نفع الدموع الآن ••؟
المرأة التي لا تبكي غارقة في مقعد موحل • زمان طويل يا وجمة الصبح ، زمان طويل لم ارك • في ليلة مضت • رأيتك على الشرفة منتصبة كتمثال وردي ، جديلتاك مفرودتان كليل أسود • سامحك الله • ما زلت في قمة الحب نجمة مضيئة

- ١٤ -

جياع الارض يزحفون ، متى يموت الزمن وتسكت الاعاصير ؟

الارانب البيض تتململ ضيقا ، تتلاشى في صمت مفجع ، والغربان تشيع جنازة الحب • اكاليل الشوك تلف النعش المشرق

من يومىء لنا من بعيد ••؟

من يقول لنا : تعالوا فقد ماتت ارانب العالم •؟

- ١٥ -

اصطدم بوجهي كلما خطوت • ارتطم باحساسي كلما مشيت ، والطريق حافلة بالبؤس والالم • حافلة بالوحل والاحتداد • والسماء ملأى بالظلام • والريح صقيع تتجمد في العيون

العنكبوت ينسج خيوطه

العالم ذبابة

- ١٦ -

لا تتحركي

حبيبتي المضيئة • دعيني اغمض عيني على ابتهال المشهد • دعيني أعمق ايماني دعي الخشوع يلفني •

كل يوم تهدم المعاول صنما يعبد ، لا للقيد يحيا الانسان • قيدونا ، اتلفوا حريتنا الا تشعرين بنسمة الحرية تبلل اجفانك • ترفرف في سمائنا التي عددنا نجومها كثيرا •؟

ابتسمي يا حبيبتي المضيئة ، ابتسمي ، القوة تعبىء الاعماق • ترفعنا كالطيور لاننا احرار • احرار كنبع لا يمكن حبسه •

غدا • تحت وهج الشمس • نحصد سنابل حقولنا الشقراء • ونأكل حتى نشبع •

- ١٧ -

عيناك اطار احلامي •

يا ريشتي

بك اخط كلمات احساسي ، ومنك ارسم حبي الكبير

لنتحد الحصار ونجتاز الاسلاك الشائكة

بيتنا على القمة مليء بالنوافذ

لننتصر يا نجمتي ونصعد اليه فنزينه بالغبطة والستائر الضاحكة • لنفتح نوافذه للشمس فقد طال الليل ••!

- ١٨ -

نجمة الصبح

بك اهتدي ، منك استمد استمراري وقوتي ، أصبحت وثيقة لعينيك لبسمتك المضيئة كبرج الكنيسة ، بي يقرؤون حلاوتك وفي صفحات عمري يجدون صورتك • ذلك هو حكمك الجائر : ان احبك • ان اصبح أنت •

- ١٩ -

اتتأملين قامتي وانا اروح واجيء على الرصيف المقابل لشرفتك ؟

نجمتي السمراء ••؟

تليق بك الثياب الوردية الرقيقة • تليق بك الشرفات المزدانة باللبلاب

ايتها الملكة المتوجه بالحب

لوحي بيدك السمراء الصغيرة للجماهير ، الرصيف لا يمل • انه يحمل اتباعك ، لوحي ايتها الملكة • الشعب يريد ان يرحل الى عمله ليعود في المساء ويقول لك : تصبحين على خير •

- ٢٠ -

يا امرأة

توقظين الحلم المخدر

البسمة المختبئة بين الاوراق ما كانت الا لك •

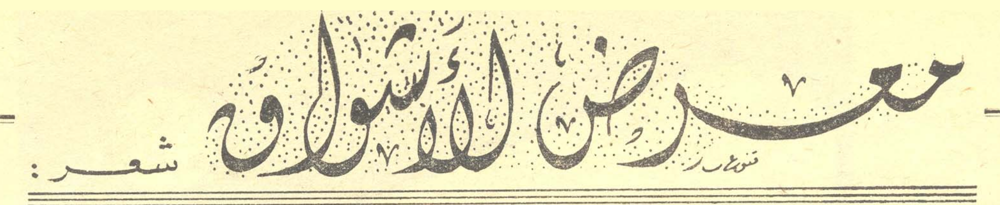
الحلم تقتله الحقيقة • وحقيقتك جارحة تضرب جبهتي •

نجمتي السمراء •

دعيني في الحلم • لا توقظيني •

في رعشة الجفون السود أحيا ، والحب وجه جميل ليس له فم • اخرس يلفه الصمت •

لتبرح الغربان من اشجار غابتك ، وتعشعش فيها طيور السلام •



شعر : ممدوح مولود

علام يحييني أخوها وكل ما ... رفعناه يوما عاليا قد تقوضا !!

دفعت تكاليف الهوى من دمي وما ... وما زلت ويحي للقصاص معرضا

أيطلب مني أن أرد تحية ... وأوقظ ما قد كاد أن يتروضا !!

أيحسب أني لم أزل بعد حالما ... بجنية حبي لها لن يعوضا ؟!

أرادوا لأحلامي الفناء ولم أرد ... لهم ما أرادوا بل وهبتهمو الرضى

أخي .. يا صديقي كيف ما زلت ذاكرا ... خيالا عن الدنيا أشاح وأعرضا ؟!

عبدت يديها كيفما كنت منهما ... ولو مدتا لي ما أمض وأرمضا

فلي في يديها يا صديقي مزارع ... سقيت مغانيها بما لن يغيضا

ولي في يديها ويح شعري شواطىء ... على رملها المخمور لي زورق قضى

ألا يا صديقي ما أشق مضاضة ... اثارة تاريخ لعهد قد انقضى !

بعثت لي الشجو الذي قد أردن أن ... أغص به ، اذ كنت أحسبه مضى

فهلا نسيت الامس ، اني نسيته ... واني كما أعرض قد بت معرضا

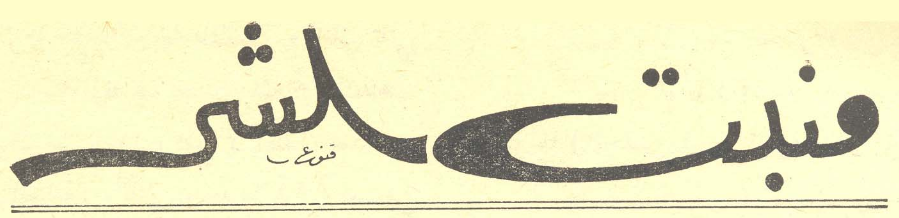
وهلا حملت الشكر عني الى التي ... دروب الهوى لي مثلها لن تقيضا

وهلا لها تمتمت باسمي هامسا ... يحبك يا أختاه حبا مقوضا

ويخشى على دنياه من كل نسمة ... تعيد له الامس الذي قد تهيضا

ملأت جناحيه الرقيقين عزة ... فحلق في الاجواء ينشد مربضا

وطاف بعيدا ، طاف في كل غابة ... وعاد من الاشواق يحمل معرضا



تمثيلية للفيلسوف الروسي : تولستوي ـ تعريب : سهيل ايوب

الاشخاص :

مارتا : ربة الدار وزوج ميخائيل ، في الثانية والثلاثين من العمر ، متبرمة أبدا ، تتكلم كثيرا وفي عجلة .

أكولينا : عجوز في السبعين ، والدة ميخائيل ، خفيفة الحركة ، محترمة الطلعة .

ميخائيل : في الخامسة والثلاثين ، حاد الطبع ، مغرور ، قوي البنية .

باراشكا : صبية في العاشرة من العمر ، ابنة مارتا وميخائيل .

تاراس : عميد القرية ، حازم رابط الجأش ، يتحدث في بطء .

المتشرد : في الاربعين من العمر ، دائم الحركة ، نحيل القد ، يتحدث بنبرة قوية . وعندما يسكر يتحدث في طلاقة وحرية .

أغناطيوس : في الاربعين من العمر ، بهلول ماجن وغبي .

الجار : في الاربعين من العمر ، دائب الحركة والنشاط .

الفصل الاول

الخريف . كوخ فلاحين فصلت عنه غرفة صغيرة . أكولينا جالسة تغزل : باراشكا الصغيرة تهز مهدا ، مارتا ، ربة الدار ، تعجن .

مارتا : يا ربي ، ان صدري ضيق . لا بد أن ذلك يعني متاعب مقبلة . ليس من سبب يعوقه هناك . وسوف يتكرر ما حدث في ذلك اليوم ، حين قصد المدينة ليبيع الحطب فشرب نصفه تقريبا . وانه ليلومني على كل شيء .

أكولينا : لم تبحثين عن المتاعب ؟ الوقت مبكر بعد ، والمدينة بعيدة . أما الآن ...

مارتا : ماذا تعنين بالوقت المبكر ؟ لقد رجع أكيميتش منذ فترة ، وهو الذي انطلق بعد ميخائيل . لكن ميخائيل لم يعد بعد . ان القلق ، القلق طوال الوقت ، هو السرور الوحيد الذي يحصل المرء عليه .

أكولينا : ان أكيميتش قد ذهب بحمله مباشرة الى أحد زبائنه ، أما رجلنا فيريد أن يبيع حمله في السوق .

مارتا : لو أنه كان وحيدا ما همني ذلك ، لكن أغناطيوس برفقته . وحين يكون في صحبة هذا الوغد القذر (سامحني الله !) فلا بد أن يسكر . اننا نكد ونتعب ليل نهار ، وكل شيء ملقى على أكتافنا ، ويا ليتنا نصيب شيئا من ذلك كله . ولكن لا ، فالتعب طوال النهار هو السرور الوحيد الذي نحصل عليه .

(يفتح الباب ويدخل تاراس برفقة متشرد مهلهل الثياب)

تاراس : طاب يومكم ! ان برفقتي رجلا يطلب مأوى .

المتشرد : (ينحني) تقبلوا احترامي .

مارتا : لماذا تكثر من اصطحابهم الينا ؟ لقد آوينا

متشردا ليلة الاربعاء الماضية • انك تأتي بهم دائما الينا • يجدر بك أن تذهب بهم الى ستيبانيدا ، فهي لا أطفال عندها • ان العناية بعائلتي وحدها أكثر من طاقتي ، وأنت تجلب هؤلاء الناس الينا دائما •

تاراس : ان أهل القرية يأوون هؤلاء الرجال بصورة دورية •

مارتا : ان لمن السهل القول « بصورة دورية » ، لكن لي أطفالا ، وفيما عدا ذلك ، فرب البيت متغيب اليوم •

تاراس : لا عليك • فليقض الرجل ليلته هنا ، وهو لن يتلف المكان الذي ينام عليه •

أكولينا (تخاطب المتشرد) : أدخل واجلس • أهلا بك

المتشرد : شكرا جزيلا • لكن هل لي أن أطمع بشيء من الطعام ، اذا أمكن ؟

مارتا : انك لم تدخل بعد ، وهذا أنت تطلب طعاما • ألم تستعط شيئا في القرية ؟

المتشرد (يتنهد) : لم أعتد استجداء الايدي بسبب حالي هذه ، لكن بما أني لا أملك شيئا •••

(تنهض أكولينا وتمضي الى المائدة ، فتحمل رغيفا من الخبز وتقتطع قطعة منه ، ثم تعطيها للمتشرد)

المتشرد (يتناول الخبز) : شكرا :

(يقتعد مقعدا ، ويروح يلتهم الخبز في شراهة)

تاراس : أين ميخائيل ؟

مارتا : لقد أخذ برسيما الى المدينة ، وقد حان موعد عودته ، ولم يعد ، لا بد أن سببا أعاقه •

تاراس : ماذا ؟

مارتا : ماذا حقا ؟ من المؤكد أن ذلك ليس خيرا ، بل الشر هو كل ما يمكننا توقعه • انه لا يكاد يخرج من الدار حتى ينسانا تماما ! وأعتقد أنه سيعود مخمورا •

أكولينا (تجلس لمتابعة الغزل ، وتشير الى مارتا مخاطبة تاراس) : ليس من طبعها الهدوء • ولقد كنت أقول دائما انه لا بد لنا ، نحن النساء ، أن نجد شيئا نشكو منه •

مارتا : لو انه كان وحيدا لما اكترثت • لكن أغناطيوس يرافقه •

تاراس (باسما) : أوه ، ان أغناطيوس ايفانيتش مغرم بالفودكا طبعا •

أكولينا : أفلا يعرف ما هو أغناطيوس ؟ ان أغناطيوس شيء ، وميخائيل شيء آخر •

مارتا : ان الكلام لا يكلفك الشيء الكثير ، يا أم• لكنني سئمت سكره • حين يكون صاحيا ، فالشكوى منه خطيئة ، أما حين يسكر ، فأنت تعرفينه اذن • اني لا أستطيع اذن أن أقول كلمة واحدة ، اذ ينقلب كل شيء رأسا على عقب •

تاراس : أجل • لكن انظري اليكن أيضا ، أنتن النساء • يتناول الرجل جرعة ـ لا بأس ، وهذا هو يترنح قليلا ، ثم يستغرق في النوم ، وتسير الامور على ما يرام اذن • لكن أمثالكن لا يبرحن يرغين • ويزبدن في وجهه طوال الوقت •

مارتا : حين يسكر ، فلا سبيل الى ارضائه ، مهما فعلت •

تاراس : لكن يجب أن تفهمي أننا لا نستطيع امتناعا عن تناول جرعة من حين لآخر • أنتن ينحصر عملكن في المنزل ، أما نحن الرجال فلا مندوحة لنا عن جرعة أثناء العمل ، أو بين الاصحاب • وهكذا نشرب ، فأين الضرر في ذلك ؟

مارتا : تستطيع أن تقول ما تشاء ، لكن ذلك صعب علينا نحن النساء • أوه ، ما أصعب ذلك ! ولو أنكم تشدون ، معشر الرجال ، الى عملنا لمدة أسبوع واحد فقط ، فقد كنتم تنشدون لحنا آخر اذن • العجن ، والطبخ ، والخبز ، والغزل ، والنسج ، ورعاية الماشية ، وما سوى ذلك ، والاطفال الذين يجب أن نغسلهم ونلبسهم ونطعمهم ، هذا كله يقع على عاتقنا • واذا لم يرق له شيء من ذلك كله ، فالويل لنا ، وعلى الاخص حين يكون سكران • أوه ، يا رب ، ما أقسى حياتنا !

المتشرد (ماضغا) : هذا صحيح تماما • انه منبت الشر ، أعني أن سائر مصائب الحياة تنشأ عن المشروبات الكحولية •

تاراس : يبدو أنها أحرقتك بنارها ، أنت الآخر •

المتشرد : لا ، ليس بالضبط كما تقول ، وان كنت قاسيت الشيء الكثير منها • لقد كانت حياتي تتخذ مجرى آخر لولا الشراب •

تاراس : عندي أن المرء اذا شرب بصورة معقولة ، فلن ينشأ عن ذلك أدنى ضرر •

المتشرد : لكن رأيي هو أن للخمرة قوة عظيمة بحيث يمكن أن تدمر الانسان كليا •

مارتا : وهذا هو رأيي أيضا • اني أشقى وأفعل ما في طاقتي ، وكل المكافأة التي أنالها هي الزجر والضرب مثل الكلاب •

المتشرد : وليس هذا كل شيء • فهنالك بعض الناس ، أعني بعض الاشخاص ، الذين يفقدون عقلهم تماما بسببها ، فيرتكبون أعمالا سيئة تماما • مثل هذا الرجل ، حين لا يكون سكران ، لن يأخذ ما هو ليس ملكه مهما أعطيته ، لكنه اذا سكر نهب كل ما يقع في متناول يده • وما أكثر ما يتعرض مثل هذا الرجل للضرب ، ويلقى به في السجون • ان الامور تجري بصورة طبيعية من الشرف والامانة ما دمت صاحيا ، لكني لا أكاد أسكر ، أعني لا يكاد ذلك الشخص يسكر ، حتى يروح ينهب كل مايعترض طريقه •

أكولينا : أعتقد أن الامانة ليست طبيعية أصيلة في نفس الانسان •

المتشرد : بالطبع هي أصيلة فيه ما دام في حال جيدة ، لكن ما أتحدث عنه هو نوع من الداء •

تاراس : انه لداء لذيذ • ان اختفاء جيدا سيشفي هذا الداء سريعا • والآن ، وداعا • (يخرج)

(تنشف مارتا يديها ، وتستدير للذهاب)

أكولينا (وقد رأت أن المتشرد انتهى من أكل خبزه) : مارتا ، مارتا ، هلاقسمت له قطعةأخرى !

مارتا : دعيني منه ، فلا بد لي من تهيئة السماور •

تنهض أكولينا وتتجه الى المائدة
فتقطع كسرة من الخبز تعطيها للمتشرد

المتشرد : شكرا ، فقد أصبحت شهيتي عظيمة •

أكولينا : هل أنت عامل ؟

المتشرد : من ؟ أنا ؟ كنت سائق قاطرة •

أكولينا : وما هو الاجر الذي تتناوله ؟

المتشرد : كنت أتقاضى خمسين روبلا ، بل سبعين روبلا في الشهر •

أكولينا : هذا أجر كبير • وكيف انحدرت الى هذا المستوى اذن ؟

المتشرد : انحدرت ! لست الوحيد في هذا المضمار •

لقد انحدرت لأن الايام ساءت جدا بحيث
لم يعد في استطاعة الرجل الشريف أن
يحيـا •

مارتا (وهي تحمل السماور الى الغرفة) : أواه ، ياربي ! من المؤكد أنه سيعود الى البيت سكران • ان قلبي ينبئني بذلك •

أكولينا : أخشى أن يكون قد فعل ذلك حقا •

مارتا : هـذا هو الواقع • اني لأكابد وأكابد ، وأعجن ، وأخبـز ، وأطبخ ، وأغـزل وأنسج ، وأعني بالماشية ، وكل الاعمال تقع على كاهلي • (يبكي الطفل في المهد) باراشكا ، هزي الطفل • أوه ، يا الهي ! ما أقسى حياتنا ، نحن النساء • وحـين يسكر ، تضطرب الامور كلهـا !••• واذا تفوه أحدنا بكلمة لم ترق له •••

أكولينا (وهي تهيء الشاي) : وهذه آخر وجبة مـن الشـاي • هل أخبرتـه بضرورة شراء شيء منه ؟

مارتا : طبعا • وقال انه سيفعل ذلك • لكنه سينسى كل شيء عن بيته !•••

(تضع السماور على المائدة ، فيبتعد عنها)

أكولينا : لماذا تترك المائدة ؟ سوف نشرب الشاي •

المتشرد : اني عظيم الامتنان لضيـافتكم القلبيـة • (يرمي لفافته الرخيصة ويقترب مـن الطاولة)

مارتا : من أية طبقة أنت ؟ فلاح ، أم شيء آخر ؟

المتشرد : أنا لست من طبقة الفلاحين ، ولا مـن الارستقراطيين ، اني من الطبقـة ذات الحدين •

مارتا : ما هذا ؟ (تقدم له قدحا من الشاي)

المتشرد : شكرا • اليك معنى ذلك : كان أبي كوتنا بولونيا ، وفيما عداه ، فقد كان لي عدة آباء آخرين • وكانت لي أمان أيضا •

أكولينا : أوه ، يا رب • وكيف ذلك ؟

المتشرد : ذلك كما يلي : لأنها كانت تعيش حياة العهر ، وبالتالي حياة تعدد الأزواج ، وكان هنالك كل الانواع مـن الآباء • وكانت لي أمان ، لأن الام التي حملت بي هجرتني في طفولتي الباكرة ، فأشفقت علي زوجة بواب وأخذتني الى بيتهـا وربتني • وعلى العموم ، فان في سيرة حياتي صعوبات كثيرة •

مارتا : خذ قدحا آخر • وهل نلت قسطا مـن العلم ؟

المتشرد : كان تحصيلي عـلى شيء كثـير مـن الاضطراب أيضا • ان الام التي ربتني ، وليس أمي الحقيقية ، قـد جعلت مني أجيرا لحداد • وكان هذا الحداد أول المربين بالنسبة الي • وكانت تربيتـه تنحصر فيما يلي : انه لم يكن يطرق سندانه بقـدر ما كـان يطـرق رأسي المسكين • وعلى أية حال ، فانـه لم يستطع ، مهما ضربني ، ان يحرمني من الموهبة • ومن ثم انتقلت الى دكان صانع أقفال ، وتعلمت المهنة وأصبحت معلما • وقد تعرفت الى أناس مثقفين ، وانتسبت الى حزب سياسي • وكنت أستطيع أن أفهم ما أقرأه من الكتب الادبية • ولقد كان يمكن أن تسمو حياتي ، لأني كنت أملك موهبة عظيمة •

أكولينا : طبعا •

المتشرد : لكن طارئا حدث هنا : النير الظالم الذي كان يثقل على حياة الشعب ! واستضافني

السجن • أعني أني قاسية محنة زجر الحرية •

مارتا : لماذا ؟

المتشرد : من أجل حقوقنا

مارتا : أية حقوق ؟

المتشرد : أية حقوق ؟ ولكنها الحقوق التي تنص على أن الغني يجب ألا ينعم باستمرار ، وأن العمال الكادحين يجب أن يحصلوا على بعض مكافآت العمل •

أكولينا : ويسترجعون الارض ، فيما أعتقد •

المتشرد : بالطبع • المشكلة الزراعية أيضا ••

أكولينا : فليحقق ذلك الله وملكة السموات المقدسة ! نحن الذين نطالب بالارض • حسنا ، وكيف هي الامور حاليا ؟

المتشرد : حاليا ؟ اني ذاهب الى موسكو • سوف أذهب الى أحد مستثمري العمل • لا حيلة لي في ذلك • وسوف أرتضع وأقول : أعطني أي عمل ، أرجوك • خذني فقط •

أكولينا : لا عليك ، خذ شيئا آخر من الشاي •

المتشرد : شكرا •

(ضجة وحديث يدفان من الخارج)

أكولينا : هذا ميخائيل ، لقد رجع في ميعاد الشاي تماما •

مارتا (تنهض) : أوه ، يا ربي • ان أغناطيوس برفقته • هذا يعني أنه سكران •

(يدخل ميخائيل وأغناطيوس يترنحان)

أغناطيوس : كيف حالكم جميعا ؟ (يرسم اشارة الصليب أمام الايقونات) هؤلاء نحن ، أخذتكم اللعنة ، في ميعاد الشاي تماما • ذهبنا الى الكنيسة ، حيث أقيمت الشعائر وغدونا نتغدى ، فأكلنا كل شيء وذهبنا الى الحان ، ودخلنا ، في ميعاد البدء تماما ها ، ها ، ها ! أعطينا شيئا من الشاي ونعطيك شيئا من الفودكا ، وهذا عدل (يضحك)

ميخائيل : من أين جاء هذا الخنزير ؟ (يشير الى المتشرد • ثم يتناول زجاجة من جيب معطفه ويضعها على الطاولة) هاتي بعض الاقداح •

أكولينا : هل سارت الامور جيدا ؟

أغناطيوس : ولا أحسن من ذلك ، أخذتك اللعنة • اشرب ، وامرح ، وعد الى البيت بشيء من الخمرة •

ميخائيل (يملأ الاقداح بالفودكا ، ويقدم قدحا الى والدته وآخر الى المتشرد) : اشربا ، أنتما أيضا !

المتشرد (يتناول القدح) : لك امتناني القلبي • نخب صحتك • (يفرغ القدح مرة واحدة)

أغناطيوس : يا للفتى الرائع ! كيف يبتلع ، أخذته اللعنة ! أعتقد أن الجوع سيسرع بالفودكا الى أوردته • (يصب قدحا آخر) •

المتشرد (متفكرا) : أتمنى لكم النجاح في سائر أعمالكم •

أكولينا : هل حصلت على ثمن جيد لقاء البرسيم ؟

أغناطيوس : جيد أو رديء ، لقد شربناه كله ، أخذتك اللعنة ! هل أنا على حق ، يا ميخائيل ؟

ميخائيل : بالتأكيد ! المال لم يصنع من أجل النظر اليه • ولا بد للمرء أن يمرح مرة كل مائة عام •

مارتا : ما بالك تترنح ؟ ليس في ذلك ما يبعث على الارتياح • ليس في بيتنا ما نأكله ، وانظر الى ما فعلت !

ميخائيل (مهددا) : مارتا !

مارتا : هيا ، ماذا عن مارتا ؟ أعرف أني مارتا • أف ، ان الظر اليك يحملني على الغثيان •

ميخائيل : مارتا ، انظري •

مارتا : ليس هنالك ما أنظر اليه . لا أريد أن أنظر .

ميخائيل : صبي الفودكا وقدميها الى ضيوفنا .

مارتا : تفو ، أيها الكلب الزائغ العينين . لاأريد أن أتحدث اليك أبدا .

ميخائيل : لا تريدين ؟ آه ، أيتها الوغدة ، ماذا قلت ؟

مارتا (تهز المهد . تقترب باراشكا منها مذعورة) : ماذا قلت ؟ قلت اني لاأريد أن أتحدث اليك ، وهذا كل شيء .

ميخائيل : هل نسيت ؟ (يقفز عن المائدة ، ويلطمها على رأسها وينتزع وشاحها) واحدة !

مارتا : آه ، آه ، آه ! (تسرع نحو الباب راكضة) .

ميخائيل : لن تخرجي ، يا لعينة . (ينطلق خلفها)

المتشرد (يقفز عن مقعده ويمسك به من ذراعه) : لا حق لك مطلقا .

ميخائيل (يقف ويتطلع الى المتشرد مدهوشا) : أمضى عليك زمن طويل لم تجلد فيه ؟

المتشرد : ليس لك أي حق على الاطلاق فياخضاع الجنس المؤنث للاهانات .

ميخائيل : أوه ، يا وغد ! أترى هذه ؟ (يهز قبضته)

المتشرد : لن أسمح للاستثمار أن يطبق علىالجنس المؤنث .

ميخائيل : لسوف أعطيك استثمارا بحيث لا تعرف على أية نهاية من جسدك أنت واقف ..

المتشرد : هيا ، اضرب . لم لا تضرب ؟ (يقدم وجهه) .

ميخائيل (يهز كتفيه ويبسط ذراعيه) : لنفرض أني فعلت ذلك حقا ؟

المتشرد : قلت لك اضرب .

ميخائيل : لا بأس . انك فتى شجاع ، ولقد تحققت من ذلك الآن . (يرخي ذراعيه ويهز رأسه) .

أغناطيوس (مخاطبا المتشرد) : من الواضح أن لديك نقطة ضعف تجاه النساء ، أخذتك اللعنة .

المتشرد : اني أدافع عن حقوقهن .

ميخائيل (مخاطبا مارتا التي تتنفس بصوت مرتفع ، وهو يتوجه نحو المائدة) : حسنا ، يا مارتا . يمكنك أن تشعلي شمعة كبيرة أمام الايقونات من أجله . فلولاه كنت ضربتك حتى جبلتك بالدم .

مارتا : وماذا أستطيع أن أتوقع منك سوى ذلك ؟ اني أقضي حياتي كلها أخبز وأطبخ ، ولا أكاد ...

ميخائيل : والآن ، صمتا ، صمتا ! (يقدم الفودكا الى المتشرد) اشرب . (مخاطبا زوجته) وأنت لماذا تنوحين ؟ ألا يستطيع المرء أن يمازحك ؟ اليك هذا المال ، ضعيه جانبا . هذه ثلاث أوراق من ذات الروبل الواحد ، وقطعتان منفئة خمسةوعشرين كوبيكا .

مارتا :والشاي والسكر اللذان طلبتهما ؟

ميخائيل (يتناول لفافة من جيب معطفه ويقدمها الى زوجته . مارتا تتناول المال واللفافة وتدخل الى الغرفة الصغيرة ، وهيتسوي في صمت من وضع الوشاح على رأسها) يا لهؤلاء النساء من مجنونات . (يقدم مرة اخرى قدحا منالفودكا الى المتشرد) اليك ، اشرب .

المتشرد (يرفض القدح) اشربه أنت .

ميخائيل : هيا ، لا تغضب .

المتشرد (يشرب) : نخب نجاحك .

أغناطيوس (مخاطبا المتشرد) : لا ريب أنك رأيت مشاهد غريبة عديدة ، فيما أعتقد . أوه ، ما ألطف هذا المعطف الذي ترتديه ! آخر موضة . من أين حصلت عليه ؟ (مشيرا الى سترة المتشرد المهلهلة) لا تصلحه أبدا ، فانه رائع كما هو . لا بد أنه يتقدم سنا ، فيما أتصور . لا بأس ، لا حيلة في الامر . لو كنت أملك مثل هذا المعطف ، فقد كانت النساء يلاطفنني أنا الآخر ! (مخاطبا مارتا) أليس هذا صحيحا ؟

أكولينا : لا حق لك ، يا أغناطيوس ايفانيتش . قبل أن تعرف المرء جيدا ، ما الذي يحملك على السخرية منه ؟

المتشرد : ناشيء عن نقص في ثقافته .

أغناطيوس : اني أفعل ذلك بدافع الصداقة . اشرب (يقدم له فودكا) .

أكولينا : يقول هو نفسه ان الخمرة هي أصل كل الشرور ـ وقد زج في السجن بسببها .

ميخائيل : لأي سبب دخلت السجن ؟

المتشرد (مخمورا) : لقد قاسيت من أجل نزع الملكية .

ميخائيل : ماذا ؟

المتشرد : ذلك كما يلي : تذهب الى خنزير سمين « أعطني مالك ، والا فهذا مسدس » . ويحاول أن يفلت منك بشتى الطرق ، لكنه يبصق أخيرا ٢٠٠٠ روبل .

أكولينا : أوه ، يا رب .

المتشرد : كنا نقصد أن نتصرف بالمال كما ينبغي . وكان زمبريكوف زعيمنا . لكن أولئك الملاعين انقضوا علينا ، واعتقلونا على الفور ، والى السجن .

أغناطيوس : وأخذوا المال ؟

المتشرد : طبعا . لكنهم لم يستطيعوا تجريمي . وفي المحكمة ، خاطبني النائب العام هكذا : « لقد سرقت مالا » ، فأجبته على الفور : « اللصوص هم الذين يسرقون ، أما نحن فقد قمنا بعملية نزع للملكية من أجل حزبنا » . ولم يدر ما يقول . تلعثم ، وجرب أن يقول شيئا ، لكنه لم يستطع أن يرد علي ، فقال : « خذوه الى السجن » ، وهذا يعني الى زجر الحياة الحرة .

أغناطيوس : يا للكلب الذكي ! انه لمحتال حقا . (مقدما الفودكا) اشرب ، يا ابن الكلبة !

أكولينا : تفو ، ما أبشع كلامك !

أغناطيوس : أنا ، يا جدة ؟ اني لا أتحدث عن أمه . تلك طريقة في الكلام خاصة بي . أخذتك اللعنة ، أخذتك اللعنة !... نخب صحتك ، يا جدة . (يجرع الخمرة ، بينما تقترب مارتا من المائدة وتصب الشاي) .

ميخائيل : هذا حق . ولا يعقل أن يغضب ! أعود فأقول ان ذلك كان بفضله . (مخاطبا المتشرد) ما رأيك ؟ (مقبلا مارتا) اني أعز زوجتي العجوز . أنظر مبلغ اعزازي لها . باختصار ، ان زوجتي من المرتبة الاولى ، ولن أستبدل بها شيئا .

أغناطيوس : هذا حسن ، يا جدة ، اشربي . والآن ، يجب أن أنصرف .

المتشرد : ماذا تعني ـ قوة الطاقة !؟ يكون المرء في حالة من الكآبة ، والآن ليس ثمة سوى السرور والشعور بالصداقة . يا جدة ، اني أحبك وأحب كل الناس . أيها الاخوة الاحباء . (ينشد نشيدا ثوريا) .

ميخائيل : ان الخمرة قد استولت على جسمه الهزيل

الفصل الثاني

المنظر نفسه .. صباحا .. مارتا وأكولينا ..
ميخائيل يغط في النوم

مارتا (تتناول فأسا) : يجب أن أذهب وأحتطب بعض الوقود .

أكولينا (حاملة جردلا) : كان أشبعك البارحة ضربا لولا ذلك الرجل . اني لا أراه . هل ذهب ؟ أعتقد أنه ذهب . (تخرجان)

ميخائيل (هابطا عن الموقد) : يا لله ، لقد ارتفعت الشمس . (يلبس حذاءه) . لا بد أنها ذهبت تستقي الماء مع أمي . لكم يؤلمني رأسي ! لن أفعل ذلك مرة أخرى ، أخذ الشيطان الخمرة ! (يرسم اشارة الصليب أمام الايقونات يصلي ، ثم يغسل يديه ووجهه) . سأذهب وأهيء الحصان .

(تدخل مارتا تحمل حطبا)

مارتا : ومتسول البارحة ؟ هل ذهب ؟

ميخائيل : لا ريب أنه ذهب ، فأنا لا أراه .

مارتا : لا بأس ، فليذهب . ولقد كان يلوح فتى ذكيا .

ميخائيل : لقد دافع عنك .

مارتا : وماذا في ذلك ؟

(يرتدي ميخائيل معطفه)

مارتا : والشاي والسكر ؟ هل أخفيتهما ليلة البارحة ؟

ميخائيل : فكرت أنك أخذتهما .

(تدخل أكولينا حاملة سطل ماء)

مارتا (مخاطبة أكولينا) : هل أخذت اللفافة ، يا أم ؟

أكولينا : كلا ، ولا أعرف شيئا عنها . أنا لم أرها .

مارتا : وضعتها البارحة على حافة النافذة .

أكولينا : نعم ، رأيتها هنا .

مارتا : أين عساها تكون ؟ (يفتشون عنها)

أكولينا : يا الهي ! يا للعار !

(يدخل أحد الجيران)

الجار : ماذا ، يا ميخائيل تيخونيتش ، هل نذهب لنحتطب ؟

ميخائيل : نعم ، بالتأكيد . كنت على أهبة تهيئة الحصان ، لكنك ترى أننا فقدنا حاجة .

الجار : يا الله ! وما هي ؟

مارتا : ان رجلي قد حمل معه البارحة لفافة فيها سكر وشاي ، وقد وضعتها هناك على حافة النافذة ، ولا أذكر أني رفعتها من هناك . ولسنا نجد لها أثرا الآن .

ميخائيل : واننا نرتكب خطيئة اتهام متشرد بات ليلته عندنا .

الجار : ما شكل هذا المتشرد ؟

مارتا : انه نحيل قليلا ، حليق الذقن .

ميخائيل : ومعطفه مهلهل .

الجار : شعره مجعد ، وأنفه معقوف قليلا ؟

ميخائيل : نعم ، نعم .

الجار : صادفته لتوي ، وتساءلت ما الذي يحمله على السير مسرعا .

ميخائيل : لا بد أنه اجتاز الجسر بعد .

ميخائيل (يختطف قبعته ويخرج مسرعا ، يتبعه الجار) : لسوف أقبض على اللص . لابد أنه هو .

مارتا : أوه ، يا للعار ، يا للعار ! من المؤكد أنه هو .

أكولينا : ولنفرض أنه ليس هو ؟ حدث مرة ، قبل حوالي عشرين عاما ، أنهم اتهموا رجلا بسرقة حصان . وتجمع جمهور من الناس ، وقال أحدهم : « أنا نفسي شاهدته يمسك به » . وقال آخر انه

رآه يقوده . ولقد كان الحصان المسروق ضخما ، يمكن التعرف عليه بسهولة . ولقد راح الناس جميعا يفتشون عنه ، فعثروا على الفتى في الغابة . فقالوا : « أنت السارق » . فاحتج وأقسم أنه لم يسرق ، فقالوا : « ما فائدة الاستماع اليه ؟ ان النساء يؤكدون أنه هو » . عندئذ تفوه الفتى بكلمات قاسية . وكان جورج لابوشكين (لقد مات الآن) رجلا نزقا ، فاندفع اليه بكل عنفوانه ، ولطمه على فمه صائحا : « أنت هو السارق ! ». ولطمه من جديد . عندئذ هجم الجميع عليه وراحوا يضربونه بالعصي والقبضات حتى قتلوه . وماذا تحسبين أنه حدث بعدئذ ؟... في الغداة عثر على السارق الحقيقي . أما الفتى الذي قتلوه فلم يذهب الى الغابة الا سعيا لاقتطاع احدى أشجارها .

مارتا : نعم ، من المؤكد أننا قد نكون مخطئين بحقه . لقد انحدر كثيرا ، لكنه كان يبدو فتى طيبا .

أكولينا : أجل ، لقد انحدر كثيرا ، ولا يمكن للمرء أن يتوقع الكثير من أمثاله .

مارتا : انهم يصيحون . أعتقد أنهم عادوا به .

أصوات بعيدة تقترب . يدخل ميخائيل والجار وهما يدفعان المتشرد أمامهما

ميخائيل (واللفافة في يده ، مخاطبا زوجته بانفعال) : وجدناها معه . (مخاطبا المتشرد) أيها اللص ، أيها الكلب !

أكولينا (مخاطبة مارتا) انه هو ، البائس . أنظري كيف يطأطىء رأسه .

مارتا : أظن أنه كان يعني نفسه البارحة بذلك الذي يستولي على كل ما يقع في متناول يده حين يكون سكران .

المتشرد : أنا لست لصا . أنا نازع ملكية . أنا عامل ويجب أن أعيش . لا يمكنكم أن تفهموا ذلك . افعلوا بي ما تشاؤون .

الجار : خذوه الى مختار القرية ، او الى الشرطة مباشرة .

المتشرد : قلت لكم افعلوا ما تشاؤون . أنا لست خائفا ، واني على استعداد للعذاب من أجل معتقداتي . لو كنتم مثقفين كنتم تفهمون .

مارتا (مخاطبة زوجها) : لنفترض أننا تركناه وشأنه ، محبة بالله . لقد استرجعنا اللفافة . فلنطلق سراحه . ولا تجعلنا نرتكب خطيئة أخرى .

ميخائيل (مرددا) : « خطيئة أخرى » ! أنت تبشرين ؟ أتعتقدين أني لا أعرف ما يجب فعله بدونك ، ايه ؟

مارتا : لم لا تتركه وشأنه ؟

ميخائيل : تتركه وشأنه ؟! اني أعرف ما يجب فعله دون نصائحك ، أيتها المجنونة ! « تتركه وشأنه » ! انه لن يستطيع أن يذهب ، لكنه يجب أن يسمع كلمة أو كلمتين بحيث يصير له شعور . (مخاطبا المتشرد) والآن ، أصغ ، أخطأت جدا . ان رجلا غيري كان يحطم أضلاعك ويجرك الى الشرطة ، لكني سأكتفي بأن أقول لك هذا : لقد أخطأت ، أخطأت خطأ فاحشا . لكنك في حالة سيئة جدا ، ولا أريد أن أؤذيك . (يسكت. الجميع يصغون . ثم يستطىء بلهجة خطابية) . اذهب ، وليكن الله معك ، ولا

تفعل ذلك مرة أخرى . (ينظر الى زوجته) ولقد حسبت أنك تستطيعين ان تعلميني ما يجب أن أفعله !

الجار : لا يجوز لك ، يا ميخائيل ، لا يجوز . تشجع هذا العمل اذن !

ميخائيل (واللفافة لا تبرح في يده) : ما اذا كان يجوز لي أم لا ، فذلك من شأني . (مخاطبا زوجته) وأنت تجربين أن تعلميني ! (يسكت وينظر الى اللفافة ، ثم الى زوجته ، ثم يناولها الى المتشرد في حزم) خذها ، تستطيع أن تشربها في طريقك . (الى زوجته) ولقد حسبت أنك تستطيعين تعلميني ! (الى المتشرد) اذهب ، لقد أخبرت أن تذهب . اذهب ، ولا تعد الى الاثم أبدا .

المتشرد (يتناول اللفافة . صمت) : أتحسب أني لا أفهم ! (يرتجف صوته) اني أفهم تماما . لو أنك ضربتني كما تضرب كلبا لكان ذلك أخف وطأة علي . أفلست أعرف ما أنا ؟ اني وغد ، أعني أني سائل . اصفح عني ، محبة بالله . (يبكي ويلقي اللفافة على المائدة ، ويخرج مسرعا) .

مارتا : فعل حسنا اذ لم يأخذ الشاي ، والا ما وجدنا ما نشربه .

ميخائيل (مخاطبا زوجته) وكنت تحسبين أنك تعلمينني ؟

الجار : كيف بكى ، ذلك المسكين !

أكولينيا : انه انسان هو الآخر .

خواطر وتأملات

يقدمها نجيب موا

رفيق الصبان وجمهور المسرح

جاء في جريدة «الصدى العام» حديث للدكتور رفيق الصبان ، قال فيه : « ان قضية المسرح والجمهور المسرحي لا تجد حلا عدديا قدر ما تجد حلا ثقافيا مرنا .. يحتاج الى صبر طويل وجهاد شاق وقدرة على تحمل الصعاب ..

اننا نخطىء كل الخطأ اذ نظن أن هذا الجمهور ، الذي سمحت دماءه صور بريجيت باردو ومارلين مونرو .. سينفعل امام المادة المثقفة الفكرية التي يقدمها المسرح !! المسرح تجربة طويلة ... وتكوين ذوق مسرحي يحتاج الى مران شاق .. فحتى في باريس .. المدينة الحضارية الاولى في العالم رأيت أناسا يسأمون من سماع رثاء « انتجونا » ويفضلون رؤية مسرحية فكاهية سمجة أو بوليسية مشوقة .. ولكن هل يعني ذلك أن على المسرح هجران دوره الثقافي .. والهبوط الى مستوى المسرحيات البوليسية والرخيصة السطحية كي يجلب اليه جمهورا انصرف عنه ؟؟

ان سورية الآن .. تحيا مخاضا حضاريا ذا شأن بعيد ، وان كل ابتعاد عن خط السير الاصيل للمسرح هو جريمة لا تسامح معها .. مهما كانت الدوافع والمغريات ..

علينا منذ الآن أن نخطط للمسرح ميدانه .. علينا أن نكون جمهورا له .. منتقى بعناية .. ينفعل للكلمة .. ويفهم معنى الحركة السامية . علينا ان نقدم مسرحيات ذات رصيد ثقافي وحضاري معين .. حتى ولو اضطررنا بادىء الامر الى التمثيل أمام مقاعد فارغة .. » .

هذا رأي الدكتور صبان . أما نحن فاننا نعتقد بأن غاية الادب الشريف .. هي أن يرتفع بمستوى الشعب بكل ما يملك من امكانيات وقوى كثيفة القرار .. وأن لا ينزل الى مستوى الشعب أبدا . وان النظرة البعيدة المدى ، العميقة الاحساس ، التي نظرها الدكتور صبان ، لخلق جمهور مسرحي .. هي نظرة الفنان الواعي ، الخلاق المؤمن .. الواثق من نفسه .

ويوم قدم لنا الدكتور صبان عملا أدبيا مغرقا في صعوبته عنيفا في نبله ، شريفا في مرماه ... يوم قدم لنا « انتيجونا لسفوكلس » استطاع أن ينتزع منا الاعجاب الدفين .. وهذا يدل دلالة واضحة على أن المسرح مهما بلغت درجة صعوبته .. فانه يحقق النجاح المطلوب اذا قدم بصورة لائقة .

أدباؤنا وقضايانا الوطنية

وتحدث الدكتور « سلمان قطاية » عن الحركة الفنية المسرحية في باريز فقال : « لاحظت في فن المسرح اتجاها واضحا هذا العام نحو الاشارة أو التعرض المباشر أحيانا ، والغير مباشر احيانا أخرى الى المسألة الجزائرية في وجوهها المتعددة ، فقد طرحت المشكلة الفاشية وجوائمها في مسرحيات رائعة كمسرحية « ارتورووي » لبريخت والتي

العدد ـ ٧ ـ عند الاسماعيليين

بقلم : عارف تامر

اقول :

العدد ـ ٧ ـ عند الاسماعيليين وليس عند الفاطميين كما جاء بمقال الدكتور محمد حاج حسين في عدد الثقافة الاخير ، لان الفاطمية اسم اطلق على الاسرة التي تقلدت زعامة الاسماعيليين الدينية ، وهم العلويون الذين ينحدرون من علي بن ابي طالب ، ومن فاطمة بنت النبي محمد بالذات ، تمييزا عن ابناء علي الآخرين الذين ولدوا من غير فاطمة ، كما ان الدولة الفاطمية في المغرب ومصر اتخذت نفس الاسم لاعتبارات سياسية وتاريخية اشرنا اليها في مناسبات شتى . اذن فالفاطمية ليست عقيدة ولا فلسفة ولا مذهب ، وانما اسم اسرة ، ولهذا فأن اطلاق اسم الاسماعيلية اجدر في المناسبات التي تعرض فيها البحوث الفلسفية والتاريخية والادبية على بساط البحث .

وأقول أيضا :

الاسماعيليون لم يذهبوا مذهب الفيثاغوريين الذين يرون ان الموجودات بحسب طبيعة العدد وخواصه كما ذكر الدكتور محمد حاج حسين ، ولكن الاسماعيليون تبنوا نظرية الفيثاغوريين الفلسفية بما يختص بالاعداد ، وأضافوا اليها بان جعلوها مثلا مجازيا لممثول صحيح ، وكم كنت اتمنى لو ان الدكتور اطلع على نظرية المثل والممثول التي جعلها الاسماعيليون اساسا لآرائهم الفلسفية ، وقديما قال داعي دعاتهم المؤيد في الدين الشيرازي مناظر ابا العلاء :

اقصد حمى ممثوله دون المثل

ذا ابر النحل وهذا كالعسل

فمن هنا نرى ان الاسماعيليين ساروا في نهجهم الفلسفي وراء الممثول ، وعرفوا المثل بالمجاز ولم يتبعوه ، فهو كأبر النحل ، وذاك كالعسل على مد تعبير فلاسفتهم ودعاتهم .

وأقول أيضا وايضا :

انني لا أفهم ما عناه الدكتور بقوله ـ وكل امام قائم بالقوة ؟

في المعتقدات الاسماعيلية نصوص تشير الى ان كل

قدمها جان فيلار مدير المسرح الشعبي ، ومسرحية « انتجونا » لسوفوكل ، ومسرحية « قاضي زالاميا » من تأليف كالدورون الكاتب الاسباني الشهير وفي مسرحية « الاتاوة » للكاتب الايرلندي المعاصر برندان بيهان ومسرحية بريخت « الجندي شفيك » التي أخرجها روجيه بلانشون .

كما نوقشت المشكلة الجزائرية في مسرحية « السلام » لاريستوفان ، و « لااجلاف » للكاتب الايطالي الكبير « غولدوني » .

انتهى كلام الدكتور قطاية . ولندع القلم قليلا ولنتساءل ... ماذا قدم أدباؤنا وشعراؤنا من انتاج ثوري عنيف ، يقف على قدم المساواة مع القضية الجزائرية ؟ وأين أدباؤنا ..؟ وشعراؤنا ..؟

يؤسفني أن أقول : ان تلك الاحداث العنيفة والثورات الملتهبة التي هزت العالم بأسره ، والتي نبعت من ضمير الشعب الجزائري .. الباحث عن النور والطمأنينة ، الظمأى للحياة ، المتطلع للحرية .. لم تستطع ـ على ما يبدو ـ أن تحرك ضمير أديب يدعى العروبة ، ولا وجدان شاعر ينادي بالقومية العربية . لقد تناسينا القضية الجزائرية .. وتناسينا من قبلها القضية الفلسطينية ، وتقوقعنا داخل ذواتنا ؛ على حين أن قضايانا الثورية قد أوحت للكثيرين ، من الكتاب الاجانب ، بروائع الادب العالمي .

امام سابع يأخذ مرتبة « الاساسية » ، اي انه يكون اساسا للدور الذي يليه ، اما الامام الذي يأتي بعده فيكون (قائما) لانه بداية الدور ، فالمعز الفاطمي كان اساسا وسابعا ، والعزيز كان قائما وخامسا ، ولهذا اشار الامير تميم بقوله :

انت المستمى المرجى قبل مولده

والخامس لقائم المذكور في الكتب

اما معنى القائم بالقوة ، والقائم بالفعل ، فلها تأويلات وترتيبات في اصول الدعوة قد يطول الحديث عنها ويتشعب ، وقد تكون نظرية الادوار والاكوار ذات علاقة مباشرة بالموضوع ، اما القاب الائمة وادوارهم كالامام المقيم ، والامام المتم ، والاساس ، والمستقر ، والمستودع ، فكل هذا كان على الدكتور ان يشير اليه لانه يشكل العصر الاهم بالموضوع .

اجل ... نحن معه بان المعز لدين الله الفاطمي كان اماما سابعا (اي سابع الاسبوعين) ومعنى هذا انه جامع لكافة القوى الذي سبقته في الدور الصغير الذي يقوم به ستة من الائمة ، ولهذا كان له خاصية كما للعدد السابع الجامع للاعداد التي قبله ، فاننا اذا جمعنا الواحد من اليمين الى الستة في الشمال يكون الحاصل سبعة ، وهكذا هو الحال مع الاثنين والخمسة ، والثلاثة والاربعة ، وهذه الخاصية لا توجد الا في العدد سبعة بالذات .

هذا ومن جهة اخرى ، فقد استغربت كيف حشر الدكتور محمد حاج حسين اسم الحسن في عداد الائمة ، مع ان الاسماعيليين يعتبرونه اماما مستودعا قام بالوكالة لذلك لا يدخلونه في شجرة نسب الائمة ، كما انهم لا يسوقون الامامة في احفاده . اما الترتيب الصحيح فهو كما يلي :

علي بن ابي طالب ، الحسين بن علي ، علي ابن الحسين (زين العابدين) ، محمد الباقر ، جعفر الصادق اسماعيل بن جعفر ، محمد بن اسماعيل ، عبد الله بن محمد (الوفي) ، احمد بن عبد الله (التقي) ، الحسين بن احمد (الرضي) ، علي بن الحسين (المعل) ، القائم ، المنصور ، المعز لدين الله . (من الملاحظ ان عبيد الله المهدي لم يدخل ايضا في عداد الائمة المستقرين لانه كان اماما مستودعا) .

ونعود الى الشاعر ابن هانيء الاندلسي فنقول :

عاصر ابن هانيء الامام المعز الفاطمي ، ويعتبر شاعره الخاص ، فهو يقول في مدحه :

هو علة الدنيا ومن خلقت له

ولعلة ما كانت الاشياء

ويقول :

هذا ضمير النشأة الاولى التي

بدأ الاله وغيبها المكنون

ويقول :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

وكانما انت النبي محمد

وكانما انصارك الانصار

ان هذه الاقوال اعتبرها النقاد والادباء خروجا على الدين ، ومبالغة في الكفر والالحاد ، ولو ان هؤلاء عرفوا التأويل الاسماعيلي حق معرفته ، وفلسفة العقائد الاسماعيلية ، وقواعد النظم الفكري الاسماعيلي ، او انهم حاولوا دراسة ما اراده الشاعر دراسة وافية ... اذا لرأيناهم يعيدون النظر بقولهم ، ويرجعون عن كثير مما اتهموا به الشاعر الكبير .

يقول ابن هانيء والخطاب للامام المعز الفاطمي ، يقول : انك عندما تشاء امرا ، فتكون الاقدار هي التي شاءت ، فأنك القدر بمشيئتك وانت المتحكم بالزمان بل انت الواحد القهار . هذا هو المفهوم العام لقول ابن هانيء ، أما المفهوم الاسماعيلي الفلسفي فليس فيه ما يخالف العقائد الاسماعيلية الصحيحة .

ان تأويل ما يقوله ابن هانيء في هذا الموضوع يتلخص : بان الباري هو مبدع الكائنات ، وموجد الاشياء ، وعلة العلل ، او القوة المبدعة المحركة ، ليس هو أيسا وليس هو ليسا ، اي ان العقل الانساني لم يصل بعد الى المرتبة التي تؤهله لمعرفة وجوده ، او عدمه ، او تصوير شكله ، وهيئته ، وصفته ، وماهيته ، فلا يستطيع العقل ان يتبع النفي المطلق لوجوده ، كما انه لا يمكنه

اثبات هذا الموجود الا بالمجاز ، فهو تجاه هذا الامر يقف عاجزا عن الادراك والتصوير ، وكل زعم او قول من هذا القبيل فيعتبر من باب الوهم والافتراض • ويضاف على ذلك •

بأن الباري المبدع لا تلحق به الصفات لانه فوقها ، ولا تلتصق به الاسماء لانه موجدها ، فحروف اللغة جميعها من موجوداته ، ومخترعاته ، اوجدها لتكون اسماء لمخلوقاته ومصنوعاته ، فهي ليست له اذ انها لو كانت اسماء خاصة به لوجب على المخلوقين ان يتساءلوا عن الاسم الاول الخاص به قبل وجودها ، ولكان هناك حد اعلى آخر سماه بها ، اذا فمن غير الجائز ان يطلق عليه اسما من الاسماء المركبة من حروف خلقها للتميز بين مخلوقاته ، وهذه الحروف لم تكن قبل وجوده ، فهي محدثة ، وهو قديم •

اما الاسماء التي ورد ذكرها في الكتب السماوية ، وعددها تسعة وتسعون اسما ، ومنها الواحد ، القهار ، العالم ، المدبر ، الجبار ، الحكيم ، الرزاق ، الخ ••• فجميعها اسماء خاصة بالموجود الاول الذي فاضت منه جميع الموجودات ، وهو ما يسمى الموجود الاول ، والمنبثق الاول ، او العقل الفعال ، او السابق ، وهذا الحد العلوي الكبير يمد الحدود التي هي من دونه بالمادة والقوة ، ومنه انبثقت النفس الكلية المحيطة ، والواهبة الحياة للعوالم ، ولهذين الحدين العقل والنفس ممثولين في عوالم الاجرام والدين والجسد كباقي الحدود الاخرى الكائنة في عالم المثل ، اما في عالم الدين فممثولهما الرسول الناطق المسمى بالسابق او القلم او العقل الاول ، اما النفس الكلية فممثولها الامام او التالي او اللوح او العقل الثاني ، وعلى هذا الاساس يكون المبدع الذي ابدع هذين الحدين قديم وعال وعريق في ايجاد الاولية ، اما عالم الموجودات والمبدعات فهو محدث لانه اذا كان غير محدث فيكون شيء سابق قد احدثه ، واذا كان قديما قبل المحدث استحال تعلق جبروته بالقدم ، ووجوده بالعدم ، واقتضى موجدا لوجوده •

من هنا كان القول : بانه المتعالي عن درك الصفات ، فلا ينال بحس ، ولا يقع تحت نظر ، ولا يدرك بالابصار ولا ينعت بجنس ، ولا يخطر بالظنون ، ولا يوصف بالحواس ، ولا بالقياس ، فهو المنزه عن ضد مناف ، او ند مكاف ، تعالى عن شبه المحدودين ، وتحيرت الافهام في نعت جبروته ، وتصوير صفة ملكوته ، ولكت الابصار عن ادراك عظمته ، وقوته ، ليس له اسماء ، لان الاسماء هي لموجوداته ، ولا صفات لان الصفات من أيسياته ، وان حروف اللغة جميعها لا يمكن ان تؤدي كامل اسمه ، لانها جميعها من مخترعاته كما سبق القول •

فأبن هانيء هنا عندما يطلق على الامام المعز لكمة الواحد ، والقهار ، فلا يعطيه الا اسما التي اطلقت على الموجود الاول الذي هو العقل الفعال ، وكما كان الامام المعز يقوم بمرتبة النبوة والوصاية معا ، باعتباره ورث منصب النبوة عن محمد ، ومنصب الامامة عن علي ، فيكون هو ممثول العقل الفعال في عالم الدين ، وصاحب الحق بحمل اسم هذا الحد •

ان الرسول الناطق بشريعته هو ممثول العقل الفعال ، والامام ممثول النفس الكلية ، وقد يتسلم الامام المرتبتين بعد نتهاء دور الرسول الناطق ، لان الامام يورث ، اما الرسول الناطق فوريثه الامام • ويعود ابن هانيء ليؤكد صحة ماقلناه ، فيعطي المعز الصفة الظاهرية ، بعد ان اعطاه في البدء الصفة الباطنية •

وكأنما انت النبي محمد
وكأنما انصارك الانصار

فلنطمئن بعد هذا الى سلامة اعتقاد هذا الشاعر الكبير ، الذي هو بحق شاعر عقيدة فلسفية لها تأويلها ونظامها ذلك النظام الذي ليس فيه اي اثر من اثار الغلو والمبالغة •

لي امل كبير بان الصديق الدكتور محمد حاج حسين سوف يعتبر تعليقي هذا صادرا عن نية سليمة ، فغايتنا لا تخرج عن كونها اظهار الحقيقة المحتجبة ، وكم نحن بحاجة الى تعاون اوسع لاخراج هذه الكنوز الثمينة ، التي تمثل وجه فلسفتنا العربية اصدق تمثيل ، وكم يقضي علينا الواجب ابعاد التعصب الذميم عن مجتمعنا ، والعيش في حرية فكرية صحيحة ، بعيدين عن كل ما يضر امتنا ووطننا •

محاولة لدراسة فان غوغ

بقلم : اسماعيل حسني

في العام / ١٩٥٣ / شاهدت معرضا في القصر الملكي بميلانو لبعض اعمال الفنان فان فوغ كان عدد اللوحات / ١٦٢ / منها / ٥٤ / رسما بالقلم الرصاص و / ٧٢ / لوحة زيتية . ولقد تحدثت الى بعض النقاد الاختصاصيين بفن فان غوغ والتأثريين - والنقد اليوم يتفرع الى اختصاصات متعددة - فأجمعوا على أن المعروضات تمثل فن الرجل أحسن تمثيل . وأحسب أننا ، من أجل محاولة لدراسة فان غوغ ، يمكننا الاكتفاء بخمسة من لوحاته ، فروح الفنان واسلوبه وطريقة استعماله الخامات يسيطر على كل جزء من كل لوحة من لوحاته .

لا ريب في أن فان غوغ ، بعد سيزان ، هو خير ممثل للمنحى التأثيري في الفن المعاصر ، فلقد استطاع أن يستوعب بقوة ارادة فائقة مختلف الاساليب الفنية التي ادركها ، وأن يعبر عن موضوعاته بأسلوب شخصي فريد ، ولقد نضج بسرعة كبيرة ، اذ لم يكن يملك وقتا يضيعه في حياته . ففي عام / ١٨٨٠ / كان عمره سبعة وعشرين عاما وقد اشتد ساعده في فنه . ان حياة فان غوغ الفنية لا تزيد على عشرة اعوام بين ١٨٨٠ - و - ١٨٩٠ / اذ أنهى حياته بطلقة مسدس صغير . وفي هذه السنوات العشر صور ثمانماية لوحة زيتية .

يقول تيو أخو الفنان ، وأحد غلاة شيعته والمعجبين به : « ان فان غوغ ، بعد تجربته الفاشلة واعظا انجيليا ، وجد أن التصوير هو سبيله الوحيد للتعبير عن ذاته ، وعما يختلج في نفسه من مشاعر انسانية نحو الفقراء والبؤساء والعمال في الحقول والمناجم وحيواتهم اليومية » . وقد لاحظت أن الرسوم المعروضة في هذا المعرض تمتاز بتعمق في التفاصيل تكاد تكون اكاديمية لولا ما يتأجج في داخلها من لهب الحب والاشفاق ، ففي البوريناج رسم فان غوغ العمال العائدين من مناجمهم رسوما مليئة بالعاطفة ، انه لم يكن يرى في شخوصهم امثلة للتمرن بطريقته الخاصة ، بل بشرا حقيقيا يجدر به أن يعرض حالهم على الناس ، بل أصدقاء عليه أن يدافع عنهم بأسلوب وبتقنية لم يسبقه اليهما أحد من الفنانين ، ثم يرسم نساء عمال المناجم وهن يحملن على اكتافهن اكياس الفحم الضخمة ، ينؤن تحت ثقلها حتى لا يجد الناظر اليهن سببا يصلهن بالانوثة ، ولا يرى فرقا بين الحامل والمحمول ، فالوجوه والايدي كأنما قدت من الفحم أو نحتت من الصخر المتسخ .

انه كان يدرس كل شيء حوله ، ويحاول التعبير في صدق واخلاص ، عن الواقع الذي كان يحياه ، وانني لأجد هذا الحب والتدقيق والفضول والدرس منبثة فيما رسم من فلاحات وباذرين وحطابين وصيادين شيوخ : يرسم الى جانب الواقع عاطفته واشفاقه ، باسلوبه الذي ارتضاه لنفسه ، وهو لم يكن يفتش عن الجمال فيما يرسم ، غير أن رسومه كانت نابضة بالجمال الذي لم يقصد اليه ولم يتكلف الابانة عنه ، وأنت ترى أنه حول الطبيعة فجعلها حية نافعة صديقة .

وجدت هذا كله في رسوم فان غوغ الاولى ، وما يزال فيها رومانسيا يذكرني في مرحلته الاولى بميلله ودولاكوا ودوميه ، وألاحظ هذا أيضا في صوره الزيتيه التي اشتغلها في المرحلة ذاتها ، وتخطر على بالي اسماء هؤلاء الفنانين ، ولكنني أجده فيها جميعا متميزا باللمسة والعاطفة والاستقراء ، ولعل ما يميزه في ذلك اكثر من

سواه « بعض الاخطاء » التي يرتكبها ورومانسيته المنحرفة ، ففي صورته الكبيرة (غرس البطاطا) احسست بالخلاف بينه وبين الرومانسيين ، وخاصة في اللون الاسود الذي كان أحد مميزات صوره في تلك المرحلة الاولى ، والذي استعمله ليعطي الصورة البروز (البلاستيكية) اللازم ، وأما الاشخاص فانه كان يبثهم في صوره هنا وهناك ، وقد احيطوا بخط يفصلهم عما حولهم ، ولعل الانسان كان شخصية الشخصيات في لوحاته ، منذ مرحلته الاولى ، ولكنه كان أحيانا شبحا في اعماق اللوحة كأنه ممسوح ، ويغرق الفنان احيانا اخرى في اظهار اشخاصه الى درجة يجعل منهم احتجاجا صارخا في وجه المجتمع ، واظهارهم في حالة من البؤس ينوءون تحت اثقال الحياة ، ضمن مناظره الغنائية ، ولعله في مرحلة ثانية اراد التعويض عن هذا الشقاء البادي على اشخاصه ، فملأ لوحاته بأزاهير اللوز اليابانية وشقائق النعمان التأثرية في حقول القمح الناضج بدل عماله ذوي الظهور المحنية التعبة .

ولكنني لا أجد خلافا ولا بعدا بين المرحلتين ، فلقد كان ينقص فان غوغ ، وهو شاب يرسم احباءه الفقراء ، هذا الاستسلام الغنائي الذي تتميز به أعماله في أواخر حياته القصيرة ، وينقصه فوق ذلك اكتشافه للمنحى الحار الرائع الذي استطاع به أن يلفت اليه انظار جميع الفنانين التأثريين ، ولدى التقائه بهم ، بدأ فان غوغ في نظري ، يعطي خير ما فيه .

وفي معرضه بميلانو هذا الذي اتحدث عنه ، عرضت ست لوحات من صوره التي عرف بها مثل « الشجرة المزدهرة » الواردة من متحف أوترلو (واكثر اللوحات المعروضة منه ايضا) و « منظر سانت ماري » و « الكرمة والفتاتان » و « الجسر في آرل » حيث لا نجد أي شيء من (التقسيمة) التي نلاحظها في اعماله الاخيرة . والتقسيمة احدى بدع الانطباعية وهي اساس التنقيطية عند سورا وتنحصر في تقسيم اللون الى عناصره الاساسية ، فبدلا من وضع اللون الاخضر كانوا يقسمونه الى اللونين الاصفر والازرق فيضعونهما في خطوط صغيرة قصيرة ، او على شكل نقاط كما كان يفعل سورا الواحدة بجانب الاخرى بصورة تجعل الناظر اليها يرى اللون الاخضر بعملية مزج ضوئية بواسطة العين ، وهذه العملية اساسها نظرية شفرول الفيزيائية في الالوان التي اعتمدتها الانطباعية برمتها . ومن المناظر التي ذكرناها آنفا ولدت المدرسة المسماة « الوحشية » او « الفوف » ولم تكن النقلة بين المرحلتين في نظري طويلة الامد ، بل كانت طفرة تأثرية محضة . اذا قارنا مثلا بين شجرة لبيسارو وبين شجرة اللوز في صورته « ذكرى موف » المعروضة في القصر الملكي بميلانو ، هذا الغناء الربيعي لا يتضمن الميزة الانتقائية التي نراها في شجرة بيسارو ، ولا نحس بثقل الشجرة التي نحسها لدى هذا ، ولا بفيزيولوجية المادة التي نشعر بها في اشجار اوتريللو من بعده ، وأنظر الى رائعته الاخرى « جسر آرل » فاذا ابتكار بديع للضوء في صباح طبيعي ، دون استسلام وضعي ، او اكاديمية متحجرة ، واذا انعكاسات لازوردية في النهر ودوائر في الماء ، والحصان الابيض على الجسر ، وجماعة الغسالات كأنها يد مفتوحة ، كل ذلك هو عناصر البناء الغنائي ذاته .

وأيضا فانه يبدو لي بأن التقاء المعلم الهولندي بالتأثرية لم يؤثر في شاعريته الانسانية ، ولا في الرجل بما يتميز به من مواهب اساسية ، ولذلك فانني أرى بوضوح سمة فان غوغ المميزة لديه المبدعة في حقول القمح الخضراء وما فيها من شقائق النعمان ، وفي الكروم الممتدة بمنظور لذيذ نحو المشاهد ، كموجات فوق الرمال ، وفي ذهب القمح الناضج ، وفي الازهار التي تشكل بناء خلابا في ظلال الحدائق .

الى نهاد

قصة طويلة ـ بقلم نزار عبيد ـ المكتبة التجارية
٧٠ صفحه من القطع الصغير

* * *

انها لبادرة طيبة أن نرى شبابنا يتسابقون الى نشر نتاجهم الادبي متخطين كل عقبة مادية تعترضهم بدفعهم الى ذلك ايمانهم العميق بجودة أدبهم وتفانيهم في خدمة الادب والفن « قصة الى نهاد » للشاب الاديب نزار عبيد ـ احدى نتاج هؤلاء الشباب المتطلعين الى الغد بعيون نهمة بكل جديد ونغوى كلفة . بكل حسن وممتع ونـزار شاب ـ كما يبدو من قصته ـ ثائر على كل قديم يرى في التقاليد القديمة ـ حجر عثرة في سبيل ركب الانسانية وتطورها نحو الكمال ..

وهو ـ كما قال مقدم قصته ـ الاستاذ موسى ـ شاب يتذوق الادب ويتعشق اللغة العربية ـ وينتظر له مستقبل زاهر في الادب بين عقليتين احداهما تـربط بالماضي بوثاق شديد والاخرى تحث السير نحو المستقبل وترمي الماضي لنظرات الاحتقار وازدراء وقد وفق الكاتب في الحديث عن هاتين العقليتين ورسم صورة واضحـة لاثر كل منهما في تقرير مستقبل الشباب . فنهاد ـ بطلة الرواية ـ تظل حائرة بين عقلية اسرتها المحافظة وبـين الحب الصادق الذي يتأجج في صدرها .

ولكنها تضعف امام أسرتها وتنتصر التقاليد عـلى الحب والعواطف ....

والقصة في جملها ـ جيدة الحوار حسنة اللغة ـ مع وجود بعض التعابير العامية كقول نزار لنهاد : « كيف الدراسة ؟ او قوله « خذ واحد هوية » ـ فهي في المستوى العادي للقصة العربية ـ ولعلها نقطة انطلاق لنزار نحو الكمال المنشود .

الى سليمان عواد ، ردا على «اغاني منتصف الليل»

أخي سليمان ، تحياتي وامنياتي المخلصة .

وبعد . استغفرك يا شاعري . فلربما خلتني اناصبك العداء ، وما عاديت انسانا . ولست أقصد ازعاجك أو خفض قيمة الهامك ، وانما اود تركيز النقـاط عـلى حروفها وفي مواضعها الصحيحة ، ان وفقت لذلك . وبخاصة اننا نجتاز ، حاليا ، في ديمومة الزمان واحضان المكان ، مراحل حرجة ، يجدر بالفكر والقيم ان يقودا الانسان فيها في منحى تكامل ، ورفعة ، وسمو الانسان . وانها لخطيئة فادحة ان تبخس الانسان قيمته ، وتشوه حقيقته اذ تطلق اغانيك في منتصف الليل . ولم تك أغان ، وانما هي رعود قاصفة ، هي زئير ، وعويل ، وندب ولطم . هي اقوال فرد اراد لنفسه الضياع حائرا في دياجير الليالي ، بلا نور ، والنور ساطع باهر . بلا

أمل ، والامال تعمر الوجود كل الوجود • بلا تفاؤل ، والتفاؤل لعمري رياض الحياة ، ولحنها العذب ، ولا لأؤها الفاتن الخلاب •

قد اكون متسرعا ، وما قرأت لك ، بعد ، من اغانيك سوى ستة عشر مقطعا نشرت في مجلة الثقافة في عددي مايس وحزيران من هذه السنة • ولربما تحمل لنا الاعداد القادمة مقاطع من اغانيك شجية ، فيها رونق الحياة الجميلة ، وبريق التفاؤل • وانما اعذر نفسي على تسرعي فلقد خشيت على بعض القارئين ان ينطبعوا بطابع اغانيك الحزينة الظالمة ، لان جل القارئين انما يؤخذ برنين اللفظة ، وسلاسة **التلحين الحرفي** • جلهم يبهر بحرفية الكلمة ، ويمجد الالم في غير مواضع تمجيده • فهلا سمحت لي بجولة قصيرة في جزء من اغانيك ؟•

تقول : « اريد ان اكون جلادا ، جلادك ايها القدر ، لاسترد كرامتي وكرامة بني البشر ••• » •

لماذا تريد ان تكون جلادا ، ؟ اهكذا تشتهي النفوس السوية ؟ ولماذا جلاد القدر بالذات ؟ الأنه يواجهك بواقعه الفاجعي كما يواجه كل فرد حي ؟ الأنه يستأصل بالموت كل الحياة ؟ لا تشر لي الى المصائب الجزئية ، فالموت خاتمة كل مصاب ، خاتمة الخير والشر على السواء بالنسبة لكل فرد • وهو الذي يعدم الوجود الانساني مطلقا • فهل الموت ، وهو حتمية القدر التي لا مناص منها ، هو الشر الاول والرزء الاكبر للانسان ؟ نعم • الأمر يبدو هكذا ظاهريا • فمنذ ان يعي الفرد وجوده ، يدرك أن شرط هذا الوجود ، انه انسان فان ، سيلقى الموت لا محاله • ولذا يبعث في اعماقه قلق مبهم متأصل في جذور النفس يصاحب الحياة ، ويعصر الفؤاد ألما • ولكن الامر هكذا على ظاهره ، وانما هو في حقيقته أبعد غورا من هذه السطحية • فان شعور الانسان انه كائن فان ، والقلق العميق الذي يخلفه ذلك الشعور ، هو الذي يدفع بالانسان الى تحدي مطلق الفناء باملائه بآثار الانسان • ان تحدي الفناء هو الذي يقود الافراد نحو كل ابداع ممكن ان يخلد اذا ما مات الانسان • وبمجرد ان يدرك الفرد ان وجوده المادي وجود زائل فانما يسمو عندئذ فوق امكانياته المادية مطلقا لخلو تلك الامكانيات من القيمة السرمدية • هكذا يعلو الفرد فوق الوجود ، وفوق شروط وحاجات ذلك الوجود ، منطلقا ابدا الى تخليد ذاته ، محققا اسمى القيم ، قيم الحق والجمال والخير • أوترى معي ، اذاً ، ان القدر لم يكن عاتيا عابثا حين جعل دنيا الانسان دنيا فانية ؟ لقد اراد القدر للانسان ان يكون مبدعا ، خلاقا ، اراده ان يعيش عمره في تحقيق دائم لذاته وللذات الانسانية مطلقا • اراده ان يعيش في تحد مستمر لشروط وجوده ، وفي صيرورة دائمة تسعى ابدا الى قيمتها ولا تحققها • وكلما نزع الانسان نحو قيمته ، وبقدر ما يتلمح آثاره منطبقة على الكون ، زاد تمسكا بأسباب الحياة ، واحب الحياة • حب الحياة والتمسك بأسبابها شعور بقيمة الانسان • فلا تغضب من القدر اذ جعل الموت ختاما لنا ، وانما هي عبقرية منه • فهل تود ان تكون جلادا ، جلاد القدر ؟ فقل لي بربك كيف ذلك ؟ ومتى ستكون ؟!!

اما في المقطع الثالث فقد قرأت « هذه المدنية قتلت ابداعي ، شوهت وجه عبقريتي •• » اذا مم تبدع شعرك واغانيك ، ومن اين تتولد عبقريتك التعبيرية ؟ أمن اللامدنية التي تحيط بك ، ام من مدنيتك كفرد عربي يعيش قرننا الحالي ، في بيئة عربية يتفاعل معها ويستمد منها مفاهمه وقيمه ؟ أوحقا سئمت « الحركة والحيوية والشعر والخلق والابداع » ؟ فماذا بقي لك من حياتك ؟ وماذا عشقت ؟ هل الالم وحسب ؟ أنا لا اعتقد انك تعرف معني للالم ، وانما تشعر به شعورا مبهما مختلطا يجعلك تنوس في اغانيك بين الفوضوية والتشاؤم • قال الفريدي موسيه

لا شيء يجعل نفوسنا كبارا كالالم العميق •

فهل النفوس الكبيرة تغني ما غنيته لنا ، وتنعي يتم الانسان اذ يحيى الانسان ؟!

وفي المقطع الخامس تفتش عن السعادة فتفقدها أبدا . وهل هذا غريب ؟ أتريد بلوغ السعادة وان تنالها بأكملها ؟ انك اذ تبلغها فألف تعزية على سعادتك . لان بلوغها بشكل يقنع النفس ، معناه احالتها الى شيء من الاشياء المقتناة الجامدة . فلا سعادة ولا شعور بها آنذاك . السر الذي يرغبنا بالسعادة ، يا صاحبي ،والذي تجعلنا نطلبها هو نفورها منا أبدا . انها هاربة الى غير لقاء مع الافراد . والبحث عنها هو الذي يتضمن معناها ويعطيها قيمتها . فابحث عن السعادة بشغف ولكن لا تألم لحرمانك منها أقصى حدود الالم لانك سعيد طالما انت باحث عن السعادة .

وقد قرأت لك في المقطع السابع : « التاريخ يعوي كالذئب في الصفحات المكتوبة بمداد الدم ، دم الملايين من العبيد الاذلاء !! .. الاباطرة استووا على عروشهم .. »

هل ما ذكرته من دم ، وعبيد ، واباطرة ، وجماجم ، هل هذا هو التاريخ وحسب ؟ ومن أين تاريخ الحضارات ، تاريخ العلوم والفنون والآداب ؟ اذا حسبت التاريخ سرد حروب ومآسي ، وتصويرا لافعال الطبقات التي سادت سياسيا على التاريخ ، فانت واهم لا شك . التاريخ أوسع شمولا ، التاريخ صيرورة دائمة تتجلى فيها ارادة الانسان . التاريخ تطور دائب تتراءى في جنباته حرية الانسان . التاريخ تطور دائب تتراءى في جنباته حرية الارض ، وما العالم سوى الاطار الذي يقسم افعاله وحيويته . وباختصار فان وجود الانسان تحقق ، وصيرورة ، وحرية ، وقيم ، هذا الوجود الانساني هو التاريخ . لقد وهمت حين حسبته وقائع سوداء ،وحوادث دامية ، وارادات مجرمة ، ولقد اخطأت حين غفلت عن الجوانب الناصعة الوضاءة في التاريخ ، فلا تظلم التاريخ .

وأجدك في مقاطع أخرى تبكي الذكريات وتنعيها في صحاريها . فهل للذكريات صحارى ؟ لا ، ابدا حتى ولو كانت ذكريات مصائب فادحة ، فان خروجنا منها بسلامة يسبق استعادت الذاكرة لها ويهب نفوسنا طمأنينة ورضى بسلامتنا . وذكريات الحرمان والحب واي نوع منها ، ذكريات فيها تجديد حياة ، واستعادة وجود مضى واستتر خلف استار الغيوب . الذكريات يا أخي ، حياة بعث ، تدفق ، ورود على الوجنات ، خفقات في القلوب ، خلجات في النفوس ، رعشات في الحس . الذكريات رياض ظليلة وارفة يخطر فيها طيف الحياة دائما . فلا ذكريات مع الاشياء ، وانما هي مع الناس ، وانعكاس حياة ومشاركة ووجدان . فهل ستعود يوما لتقول « مدى العمر يقصر ، الماضي ذهب ، مخلفا وراءه صحراء الذكريات ، رمالها المحرقة .. » ؟

ثم اسمعك ، ويا ويلي ، تخاطب الناس قائلا « ايها الناس ، يا أشباه الناس ، يا مهزلة الوجود وسخرية القدر ... » فلعلك تعني بعض الناس ، ولكن اهكذا تخاطب الناس ؟ فماذا سيكون جواب الناس اليك ؟ واذا كان الناس مهزلة واشباحا ، فما هو معنى الحياة وما هو معنى الوجود ؟ أوليس الانسان الذي يهب العالم معناه ويخلع عليه صفتي الحقيقة والحياة ؟ أوليس الانسان يعطي المكان والزمان والاشياء جميعا ، عمقها النفسي وتعريفاتها ؟ وما هو معنى الجماد والنبات والحيوان بالنسبة لبعضهم بعضا ؟ فاذا كان الناس اشباها ومهزلة فأي معنى ستبقي للوجود ..؟!

وكنظرة اخيرة ، فانني لست أغفر لك ، ولا يغفر لك قط ان تقول « كن وحشا ايها الانسان ... » أفحقا تريد ذلك منا ، يا شاعري يا ايها الانسان ؟ ان في هذا النداء مخالفة واضحة لطبيعتك . وهل تودني أن أصبح وحشا ؟ اذاً حذار مني اذ ما لقيتك يوما في (الثقافة) عند الاستاذ عكاش . سأنقض عليك أنهش من لحمك (لا سمح الله) فأنا واثق من قوتي الجسدية واني أقوى منك لا شك .

مهلا ، وارفق بنا ، فلا نستطيع ان نعود وحوشا

وقد جبلت قلوبنا بالحب ، وفطرت نفوسنا على المواءمة ، ونحن احرار وهبنا الادراك من لدن رب عظيم • أضحينا مع الزمان متمدينين نطبع الكون بطابعنا ، ونثقف كل شيء حتى الجماد • أين ؟ أين يكمن الدين والفن والعلم ، وأين تكمن القيم في ندائك ؟ لا شك في أن طبعك وطبيعتك يخالفان ما اتيتنا به ، وما انت يا أخي سوى شاعر وحسب ، والشعراء يقولون مالا يفعلون •••

انا نحب الوئام ، نعشق الضياء بأطيافه الزاهية ، نريد الفرح ، نعشق العيون وفتونها ، تترنم برنين الوتر ، ونتمنى اشراقة نور في دجينات غنائك • نريدك شاعرا صداحا ، غـردا ، حلو النغم ، بديع النظم ، رقيق الرعشات • فاذا كنت متألمـا متشائما فكن لنفسك • اناشدك بانسانيتك ان تغني غناء حقا ، تغريدا منغما ناعما بديع الانسجام • اعزف لنا على أوتار قلبك الحـان السعادة واطلعنا على ألوان الافراح والضياء • رفقا بنا وانت منا يا أخي الانسان • كيف ؟ كيف تمغض العين عن منابع الحق ومفاتن الجمال ومآتي الخير ؟ كيف تصغي لصوت الرعود ووقع الصواعق ونحيب المصائب ، ولا تناغم مطلق الخير في اعماق ذاتك ؟ فليس في الكون شر بالمعنى الذي يتراءى اليك • الشر بأنواعه الثلاثة (الميتافيزيقي ، والفيزيقي ، والخلقي) اما عدم جوهر ، او عدم صلاح جوهر • فاذا عرفنا ان كافة معـاني الوجود ، انما هي معان اصطلاحية ونسبية في اعتبارات الافراد والجماعات • اذا ما علمنا ان كلا من الخـير والشر نوعان ، نوع طبيعي محسوس ، وآخر خلقي معقول ، وان الشر الخلقي خير طبيعي لخيريته الحسية او ينبذ لشريته الخلقية ، وان ليس ثمة شر بالمعنى المعروف والمتداول بين الناس ، واذا ما عرفنا كل سبق ، ادركنا عندئذ ان ليس ثمة حدود فاصلة بـين مجـالات الخير والشر ، وعجزنا عن ان نجسد الشر او ان نعطيه تعريفا يحده ويميزه عن الخير •

انك متألم ، ولكنك انت بنفسك اخترت الالم ، وغصت في قاعه بعيدا تفتش عـن الكور والصخور ، وتغفل عن اللآلىء واطمار الجميلة • انت انسان ، وانت من يعطي الاشياء معانيها • أعطني ألف شاهد متـأمل للغروب ، أعطيك ألف وصف لذاك الغروب • وليس وجود الانسان وجودا محققا جامدا ومشخصا كوجود الورود على أغصانهـا • وانما وجوده (امكانية عـلى الوجود) • فليس الوجود المادي هو الذي يهمنا مـن الانسان • ولكن ما يهمنا وجوده الادراكي ، ذلـك الادراك المجسد في حرية الاختيار والفعل ، والـذي ما ينفك يغير صفات الوجود وقيمه • فاذا ادرك الفـرد هذا المعنى لوجوده ، يجد في حرمانه النسبي من امانيه وآماله ، وفي سعيه لتحقيق ذاته وفرض طابعه عـلى الكون ، وفي نزوعه ابدا نحو تكامله سعادته وافراحه •

وانت يا سليمان ، اذا أردت السعادة فانها بـين يديك • ولادلنك على سبيلها • ابتسم وانشر الفرح في كل من حولك تجدك فرحا حبورا بأفراح الناس • الناس تنفر ممن يعبس وتتجاذب لمن يبتسم ، عـالم الظلام عالم نيام حالمين ، وعالم الضياء عالم الانسان بمعنى الانسان • لا تمزق الضمائر وقد انتظمها الحب العظيم الخلاق ، حب الانسان لاخيه المقـاصي والقريب • لا تقل لي « كن وحشا ايها الانسان » بل قل « كن عادلا يا ايها الانسان » تدفعني للتفتيش عن معاني العدالـة وسبلها • قل لي « كن جميلا » اجدك جميلا واهفو للجمال ، اعشق الوانه ، واعبد أطيافه ، واتلمحه في كل نظرة عين وطرفة جفن • قل لي كن خيرا يا ايهـا الانسان » اكن كما تنادي ، وتكون انت معي كما تريد لي ، فأنت لست انسانا الا بين الناس • ولا تحـاول ان تظهر بمظهر الجبروت والتشاؤم في اشعارك ، فانك لن تستطيـع أن تكون نتشيه او شوبنهور العروبة • لا لشيء ، فلربما كنت أكثر عبقرية منهما ، وانمـا للفـارق الشاسع بين البيئة والظروف التي تمخضت عنهما ، وبين بيئتك وظروفك الراهنة • فلا تقلدهما ،

فالعبقرية خليقة ان تكون خالقة مبدعة على الارض كما هو الله في السموات خالق العالم الكبير .

وكنهاية لهذه الكلمة أود أن أورد لك ختام مقال سابق لي نشرته مجلة الثقافة في عدد آذار ١٩٦٢ بعنوان (الانسان والسلم والحرب) . أرجو أن تتفضل بالتمعن في معانيه . قلت في خاتمة مقالي :

« أخي الانسان في كل مكان . انت حبي ، انت اصالتي في اعماق ذاتي . أنا ان هدمتك هدمت نفسي ، ان أهنتك أهن كرامتي ، وان احببتك فالحب حبي نابع من قلبي وهو قلبك ، وان اخلصت اليك فهذا اخلاصي ، وان ضمرت لك النية السليمة ضمرتها لوجودي فأنت وجودي ... »

من مثل هذا النغم تتدفق اصالة الانسان ، وبمثله تتناغم الانفس جميعا . وبمثل هذا خاطبنا يا سليمان . فلسنا نريد ان نكون وحوشا .. وما ارادة الوحشية سوى تمزيق للضمير . ما هي الا هوى مخيف فيه تعاسة وموت الانسان . نحن نود وحدة الضمير ، نريد الفرح والسلام . وان عملا اخلاقيا واحدا يطلب منك كانسان : هو الجهد ضد الاختلاف وفي سبيل توحيد الضمائر بالحب والوئام . فذاك ، وذاك وحسب ، هو طريق الحياة ورسالة الانسان .

عيد الفقير

سولانج فاسكيل
والرواية الحديثة

بقلم : الدكتور جميل جبر

« .. كتفتح براعم عبقة بشذى فاغم حار .. في متاهات أحلامها خضر ، تتعانق أطيافها متراقصة على وجود حالم ؟ يتفتح وجه فاتن « اسمر الجبهة كالخمسوة في النور المذاب » كل ما فيه ينطلق بالبراءة والسحر .. عيناه واحة من نور .. شفتاه موجتي عبق لسحرية الايقاع .. يداه كانت تمسح عن وجنات نافذة غارقة ، في شارع (أوكتاف فوييه) ما علق بها من همسات نجوى وبوح .. قذف بها نسيم رطب عليل ... حملته ضفاف السين — في باريس — كل ما فيها من رقة وسحر .. فحملها بامانة واخلاص الى أديبة فرنسية في مقتبل العمر ، استطاعت أن تتمثل ثقافة واسعة عميقة .. فعاشت لحظات وجودها ، بعفوية وأصالة ، تستخرج من تجارب ذاتها ووجودها ، مادة رواياتها الثلاث ، وهي « مالكوندوي » و .. « مؤتمر اكس » و « ما الحياة » . وقد تناولت المؤلفة الشابة في كتبها الثلاثة موضوعات حساسة تهم الانسان المعاصر .. وتدور حول البحث عن الوجود » .

تحدث الدكتور جميل جبر مع المؤلفة الشابة « سولانج فاسكيل » — بمناسبة صدور روايتها الاخيرة — عن نظراتها الخاصة الى الفن الروائي وعن قضايا عديدة لها علاقاتها الوثيقة بالرواية الحديثة . والثقافة التي أخذت على عاتقها ان تقدم للشباب الغربي ، ماينشده وما يبحث عنه وأن تطلعه على التيارات الفكرية الغربية ... يسرها أن تقدم هذا الحديث لقرائها الاعزاء .

— ما هو مفهومك الخاص للرواية ؟

الرواية — في نظري — هي بالدرجة الاولى ، حكاية تستأثر باهتمام القارىء حتى النهاية . والرواية الناجحة حقا هي تلك التي تذهل القارىء عن الواقع .

— اذن ما يميز الرواية عن الحكاية العادية ؟

في الرواية يمكن للقارىء .. ان يجد نفسه في شخص من اشخاص الرواية ... أما في الحكاية فهو يبقى غريبا عنها .

— ما رأيك في الرواية الجديدة التي يتزعم حركتها بوتور وروباغريق ؟

أراها مملة ، مشوهة . ان فيها افراطا يسيء الى جوهرها . وأنا أعتبر ان الادب لا يمكن في حال من الاحوال أن يكون حيا ان لم ينطلق من موضوع انساني . فالاشياء التي يريدها رواد الرواية الجديدة .. غاية روائية بحد ذاتها ، لا يجوز أن تكون الا ذرائع فنية أو هوامش مساعدة ليس الا . غير اني معجبة مع هذا بنتاج « نتالي ساروت » وأرى أنه رغم كونه في صميم المدرسة الجديدة ، يلزم خط الاعتدال .

— من تفضلين بين كتاب الرواية ؟

اني أميل الى الرواية الانجليزية المعاصرة ، واحب كثيرا روايات « فرجينيا وولف .. وجين اوستن » من النساء . وقد تأثرت جدا بالتيار اللاشعوري الذي يرتكز

اليه تداعي الافكار في الرواية • أما بين الروائيين الرجال ••• فأحب خصوصا الايطاليين ولا سيما « البرتومورافيا » ـ ولكن ليس في روايته الاخيرة « الملل » ـ ، وايطاليو سفيفو وسولداتي • واحب كذلك « هنري جيمس » رغم أن عصرنا قد تجاوزه •

ـ وبلزاك ومورياك ؟

بلزاك يبقى سيد الرواية بلا منازع • أما مورياك فأذكر اني قرأته وانا في السادسة عشرة ••• فأعجبت به الاعجاب كله • ولا أدري هل ان هذا الاعجاب يستمر لو اني عدت اليه من جديد •

ـ والرواية الروسية ؟

دوستويفسكي وتولستوي اسمان عالميان ولاشك • الا انني لا أميل الى نوع الرواية التي كتباها •

ـ وفرانسواز ساغان ؟

انها صديقتي واحبها كثيرا • وقد اعجبتني جدا روايتها الاولى « مرحبا ايها الحزن » • أما الباقيات فلا ••• فاني رأيت فيها ترديدا للاولى • وأهم مآخذه على فرانسواز هو انها لا تخرج عن دراسة بيئة معينة ، ولدها خيالها ، وقد تكون منفصلة عن الواقع ، أقصد أن أشخاصها اصطناعيون انهم ابناء الجيل الضائع ، ولكنهم مع هذا لا يعنون بأي شأن من شؤون الحياة فلا مشكلة لديهم ولا تجربة أصيلة •

ـ ومسرحها ؟

انني أؤثرها كاتبة مسرح •• ولا سيما في « قصر في السويد » واعتقد ان اللون المسرحي يلائم مزاجها الفني اكثر من اللون الروائي • فهي أشد موهبة في الحوار منها في الوصف أو السرد •

ـ لماذا تعتمدين الطريقة المباشرة ـ صيغة المتكلم ـ في رواياتك ، وهل ترينها أطوع من ـ صيغة الغائب ـ في الطريقة اللامباشرة ؟

في الواقع اني لم الجأ الى الطريقة المباشرة ، الا في روايتي الاخيرة وقد أتعبتني جدا • لذا سأعدل عنها في روايتي المقبلة • والعقبة الكبرى التي اعترضتني تكمن في تجسيد المؤلف للشخص الرئيسي •• وتنسيق الماضي والمستقبل بالنسبة الى الحاضر ، وهي أمور لا بد منها في هذا النوع من النهج الروائي •

ـ ما هي الموضوعات التي تعالجها رواياتك ؟

تروي الاولى قصة عائلة نبيلة •• انقلب الدهر عليها فعاشت بعيدا عن عصرها • وتصور نماذج الملل المتعددة التي يعانيها كل من اشخاص الرواية • أما الثانية فتدور وقائعها في مؤتمر اعمال •• محورها العزلة النفسية • أما الاخيرة فتتناول مشكلة التحرر التي تعترض الفتاة المثقفة في البيئة البورجوازية المحافظة بل المتحجرة ، وهكذا نرى خطا واحدا بين هذا المثلث الروائي ، يبدأ بالملل وينتهي بالاختناق ، مرورا بالعزلة النفسية الناخرة •

ـ والرواية الجديدة ؟

تعالج موضوع الجنون نتيجة أزمة نفسية عنيفة • ولا أدري ما سيكون من لحمتها •• نهايتها ، لاني لا أضع مخططا مسبقا لرواياتي بل أدع اشخاصها تحيا حياتها الخاصة •

ـ هل ترين أن الفكرة الموجهة ضرورية في الرواية؟

لا بد أن يكون للرواية هدف فكري معين • الا ان التعبير السافر عن الفكرة ، يسيء الى حركة الرواية•• ويجعل أشخاصها آلات بين يدي المؤلف •• لا شأن لهم الا بقدر ما يصلحون ذرائع فكرية • أما التعبير الضمني عن الفكرة •• فهو الافضل ، وهو ما يستنتج استنتاجا من سياق السرد ، ومن ظل الوقائع والحوار •

ـ ما علاقة رواياتك بحياتك الخاصة • أليس ثمة صلة بين بطلة « ما الحياة ! » والمؤلفة ؟

اذا قصدت العلاقة المباشرة فلا • ولكن هل يستطيع الاديب أن يكون حيا حقا اذا لم يستوح اختباره الخاص •• أو انطباعاته أو مشاهداته •• أو قرائه ؟• اني لا أنسخ الواقع نسخا ، انما اصوغه بعد أن أتمثله عبر الاختبار الذاتي • ثمة أشياء كثيرة لها معادلات في حياتي ، الا انها معادلات مصفاة ، مختارة ، مبدلة ، فالاختبار الشخصي مادة خام أعود اليه فأشذب •• وأنتقي وأغير حتى يخرج الاثر الادبي كائنا حيا مستقلا رغم أنه يحفظ وشائج قربى مع المؤلف • واذا شئت فقل ان علاقة الرواية بالمؤلف علاقة الولد بوالديه •

عن « أضواء »
بتصرف « الثقافة »

النشاط الثقافي

قدمها...

الجمهورية العربية السورية

● **« نزار قباني » الشاعر الذي يرسم بحبر العناقيد صورا سكرى ، يغادرنا في ٢٦ تموز الى مدريد ، ليتسلم مهام منصبه الجديد في سفارتنا باسبانيا ٠ من الغريب ان نزار قد قال ذات يوم : « أعود الى مدينتي كالسفينة المتعبة،لاريح جبيني على أصغر حصاةفي بلادي بعد أن قضيت نصف عمري في التجوال ٠٠ أطوف على خشبة، أغرقت البحر ولم تغرق ٠ » ٠**

● يعد الشاعر « عمر أبو ريشة » ملحمة شعرية طويلة يزيد عدد أبياتها على عشرة آلاف بيت ٠٠ من المنتظر ان تكون من الملاحم الادبية الضخمة ٠

● **دفعت السيدة « أميرة الحسني وياب » صاحبة الازاهير الحمر بقصتها الثانية « سراب » الى المطبعة ، وهي الان عاكفة على كتابة مجموعة من القصص القصيرة ٠٠٠ لم يعرف اسمها بعد ٠**

● « وداعا يا دمشق ٠٠ » مجموعة قصص قصيرة للاديبة السيدة الفة ادلبي ٠٠ ستصدر قريبا ٠

● **تفكر جمعية الادباء ، بدعوة بعض كبار الادباء العرب للاسهام في محاضرات وندوات الموسم الثقافي ٠٠٠ الذي سيبدأ في الخريف القادم ٠**

● ندوة الفكر والفن بدمشق دعت الى أمسية أدبية ، اشترك فيها الشاعر محمد الحريري ، والسيدةالفة الادلبي ، والانسة سهير قباني ٠ قدمت سهير منتخبات للشاعر الامريكي ولت وتيمان ٠

● **صدرت عن دار مكتبة الحياة ـ هذا الاسبوع ـ المجموعة القصصية الجديدة لعدنان الداعوق ، وهي بعنوان « السمكة والبحار الزرق » ٠**

● مديرية الدعاية والانباء بدمشق ، منعت نشر قصة « عفوا ياكوشكا » من المجموعة التي ترجمها الشاعر صالح درويش ستصدر المجموعةباسم جديد ٠

● **تحدث القاص « فاضل السباعي » في المركز الثقافي بالرقة عن « الابداع في القصة»، وقد تناول في محاضرته هذه عملية خلق القصة منذ اللحظة الاولى ٠٠ حتى الفراغ من الوضع ٠**

● دعت وزارة الثقافة المثال الحلبي « وحيد استانبولي » ، للاشتراك في مسابقة اقامة نصب تذكاري في ادلب للزعيم الخالد « ابراهيم هنانو » ٠

● **« شيء من عمري » المجموعة القصصية الثانية للقاص « عبد الله الشيتي » ٠٠ تصدر قريبا ٠**

● سفير ايران في دمشق ، أرسل كتاب شكر لوزارةالثقافة والارشاد القومي ٠٠ لاهتمامها بنشر الادب الفارسي في سلسلة « روائع من الشعر الشرقي » ٠

● **« نجوم لا تحصى ٠٠ » آخر مجموعة قصصية لفاضل السباعي ، كانت موضوع مناقشة في ندوة عامة ضمت الاساتذة سامي الكيالي وبكري الامين ٠٠ ووليد اخلاصي ٠ انتهت المناقشة الى أن في قصص هذه المجموعة روحا انسانية غامرة ٠**

● « القمر الشرقي على شاطىء الغرب » ديوان شعر جديد كتبه شاعران ، وأرفقاه برسوم من ريشتيهما ، أحدهما يكتب بالفرنسية « شريف خزندار » ٠٠ فيترجم له فاتح المدرس ٠ والثاني « فاتح المدرس » يكتب بالعربية ويترجم له شريف الى الفرنسية اعتبر الكتاب المذكور مفاجأة الموسم الادبي لماحوى من تجديد في الاخراج والتبويب ٠

● **اجرت الدكتورة انيت كريكارد من جامعة ولاية مسيسيبي والاستاذة الزائرة في جامعة دمشق ـ كلية الاداب ـ قسم اللغة الانكليزية ، اجرت حديثا ادبيا مع الاستاذ سليمان عواد ٠ وقد ترجمت له بعض القصائد ٠ وسينشر هذا الحديث في كبريات الصحف والمجلات الاميركية كما وانه سيذاع من محطة صوت امريكا ٠**

لبنان

● **باشرت احدى مطابع بيروت بطبع مقالات « مي زيادة » ، كما ان لجنة تكريم مي ، قد قررت انشاء متحف باسمها .. واقامة تمثال لها ، وترجمة وطبع آثارها التي كتبتها باللغات الاجنبية .**

● « أدب ونقد » كتاب جديد ، يؤلف ثورة في تاريخ الادب النقدي ... ، صدر حديثا عن دار الروائع للاديب القاص « جان زكي سالمة » .

● **« الشاعر سعيد عقل » يفكر بانشاء جائزة ادبية تحمل اسمه ، وتمنح سنويا لافضل نتاج عربي . قيمة هذه الجائزة « ٢٥ » الف ليرة .**

● خسر لبنان احد مداميك وجوده الحضاري، بوفاة الكاتب والقاص ، والناقد ، والمربي مارون عبود عن ٧٧ عاما - مثقلة بالعطاء الادبي - في بيته في الكسليك . كان مارون عبود يعتبر خير تآليفه على الاطلاق كتاب « فارس آغا» .. والجدير بالذكر ان هذا الكتاب لا يزال مخطوطا . أمنية أبا محمد الاخيرة كانت أن يقرأ الناس « مذكرات مارون عبود » .

● **« موت الآخرين »مجموعة شعرية جديدة ، لرياض نجيب الريس . صدرت حديثا في بيروت معدراسة لجبر ابراهيم جبرا .. تناولها انعام الجندي بشدة وعنف .**

● سيصدر عن المكتب التجاري في بيروت قصة طويلة للاديبة« خالدة عبد الله » **تحت** عنوان « لحن وحب » .

● **« أغاني الفردوس» لالياس أبو شبكة ، صدر حديثا وبطبعة جديدة عن دار الحضارة للنشر . كما صدر عن الدار المذكورة والمؤسسة حديثا « ايدي يوريديس » وقدترجمها عمر أبو ريشة والياس خليل زكريا ، وهي تمثيلية منولوجية برازيلية ، نشرتها الزمان على حلقات متسلسلة .**

● كما صدر حديثا لادفيك جريني شيبوب كتاب « بوح » وهو مجموعة قصائد واهزيج.

● **على أحد الشوارع الرئيسية في بيروت ، قرر مجلس العاصمة اللبنانية .. ان يطلق اسم الشاعر الفيلسوف « طاغور ».**

● « الاخطل الصغير » صاحب الهوى والشباب ، ما زال يواصل العمل في كتابه « من بقايا الذاكرة » ومن المنتظر ان يصدر قريبا .

● **« الاحمر والاسود »رواية ستاندال الشهيرة ، ترجمها غياث حجار في ٧٠٠ صفحة من الحجم الكبير . تصدر قريبا .**

العراق

● « العلوم القانونية »مجلة قانونية فصلية تصدر باللغات العربية والانكليزية والفرنسية المحامي فريد فتيان صاحب المجلة ينتظر موافقة وزارة الارشاد .

● **منعت وزارة الارشاد كتاب « ضيف الارض »للمؤلف « يوسف حوراني » من دخول العراق . يدعو الكتاب الى التعايش السلمي بين العرب واليهود .**

● اللواء عبد الكريم قاسم، أمر بصرف مبلغ ٥٠٠ دينار لاتمام علاج الشاعر « بدرشاكر السياب » الموجود حاليا في لبنان .

● **تألفت في بغداد لجنة تأبين عبد القادر الناصري . ضمت اللجنة الدكتور يوسف عز الدين وسبات ابراهيم حمدي . والشعراء حافظ جميل ، انور السامرائي ، خضر الطائي . والادباء عبد القادر البراك ، مهدي القزاز ، مشكور الاسدي ، توفيق الفكيكي المحامي . توفي الشاعر في ١٥ مايو بتأثير تسمم معدته.**

● مثلت العراق في المهرجان الموسيقي الدولي الذي عقد أخيرافي براغ الانسة «بياتريس اوهانيسيان » المدرسة في معهد الفنون الجميلة في بغداد .

● **صدر حديثا للاستاذ « أكرم نشأت ابراهيم »المدرس في كلية الحقوق كتابا جديدا بعنوان « مآسي ومهازل للحقيقة والتاريخ » .**

المملكة العربية السعودية

● للشاعر « محمد ابراهيم جدع » ديوانا جديدا بعنوان « الالياذة الاسلامية » سجل فيه الشاعر الاحداث الاسلامية

الكبرى . اشترت وزارة المعارف السعودية ١٥٠ نسخة لتوزيعها على المدارس .

● **يصدر عما قريب لعميد كلية الشريعة بمكة الاستاذ « احمد علي » كتاب « ذكريات » يتحدث الكتاب عن وصف رحلات مزودة بالحقائق التاريخية والجغرافية .**

● تحدث الشاعر السعودي « أحمد عبد الله الفاسي » عن الشعر فقال : الشعر الحر ضرورة تطور فرضتها ظروف الحياة واحداثها الجسام وطبيعة المعركة التي نعيشها في دفع لا يقف . فالقافية تلزمنا الاجتزاء ، والتطويل يضطرنا الى التكرار .. أو البعد بالمعنى في التعبير المباشر من الغاية ، مما يستلزم بيتا أو بيتين أو أكثر حتى لنبلغ ذلك المعنى ، وقد نبلغه بعد تهافت القافية . هذا الى جانب اننا لا نشك في أن الشعر العربي يفتقد شعر الملاحم .

● **احدى الجامعات في المانيا اختارت للشاعر السعودي « طاهر الزمخشري » باقة جديدة من شعره لضمها الى مجموعة نماذج « الشعر العربي المعاصر » التي تعدها .**

● **اشترت دار نشر بريطانية نسخة من مذكرات موسوليني .. كتبها بخط يده أثناء اعتقاله في السجن قبل اعدامه .**

● « الدراما عند ابسن وستروندبرج » كتاب جديد للكاتب الانكليزي « ف . ل . لوكاس » يقع الكتاب في خمسمائة صفحة . ويعتبر ابسن رائدا للمسرحية الاجتماعية في الادب العالمي الحديث .. وهو أول من دعا دعوة فنية لتحرير المرأة . أما معاصر ابسن .. ستروندبرج فيعتبر رائدا للمسرحية النفسية التي تهتم بالكشف عن الصراع الداخلي في نفس الانسان .
